سُورَةُ الصَّافَّاتِ

مكية وهي مائة وثنتان وثمانون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ﴿١﴾ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ﴿٢﴾ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ﴿٣﴾﴾.

﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا * فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا * فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا﴾ هذه الأوصاف الثلاثة، صفاتٌ لموصوف واحد، وهم الملائكة الأبرار الأطهار، وصفوا بالصافات لأنهم يقفون صفوفاً لأداء العبادة، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ﴾ وكما قال ﷺ في حديث جابر بن سمرة «ألاَ تَصُفُّون كما تصف الملائكة عند ربهم؟ قلنا وكيف تصف الملائكة عند ربهم؟ قال: يتمُّون الصفوف المتقدمة، ويتراصُّون في الصف»[1] وأما وصفهم بالزاجرات فإنهم يزجرون السحاب، أو يزجرون الشياطين عن التعرض لبني آدم، أو عن استرقاق السمع، وأما وصفهم بالتاليات فالمراد به التلاوة على الأنبياء وغيرها من التسبيح، والتحميد، والتقديس. أقسم تعالى بهذه الطوائف من الملائكة، الصافات قوائمها في الصلاة، التاليات لآيات الله، على أن الله واحد لا شريك له، وفي الحلف بالشيء تعظيم للمحلوف به،

(١) الحديث أخرجه مسلم في صحيحه وانظر جامع الأصول ٥/ ٦١٥.

والحكمة في القسم بهذه الأشياء، التنبيه على شرف ذواتها، فإن قيل: الحلف إن كان لإثبات المطلوب عند المؤمن، فهو مقرٌّ به، وعند الكافر لا يقرُّ به، فهذا الحلف عديم الفائدة؟ فالجواب: أنه تعالى قرَّر التوحيد، وصحة البعث بالدلائل اليقينية، فذَكَر القَسَم تأكيداً لما تقدم، لا سيما أنَّ إثبات القضية بالحلف، طريقة مألوفة عند العرب، ولما أقسم على التوحيد، ذكر عقيبه ما هو الدليل وهو قوله: ﴿رب السماوات﴾ الآية كبرهان على قدرته ووحدانيته.

وقوله تعالى:

﴿ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ﴿٤﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ﴾ جواب للقسم، والجملة تحقيق للحق الذي هو التوحيد.

﴿ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ ﴿٥﴾ ﴾.

﴿ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ ﴾ هو البرهان الناطق، فإن وجودها وانتظامها، على هذا النمط البديع، من أوضح دلائل وجود الصانع، وعلمه، وقدرته، ووحدته، والمراد بالمشارق مشارق الشمس في السنة، وهي ثلاث مائة وستون، تشرق كل يوم في واحد، وبحسبها تختلف المغارب، ولذا اكتفى بذكرها مع أن الشروق أدل على القدرة، وأبلغ في النعمة، وأما قوله تعالى: ﴿رَبُّ المَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ المَغْرِبَيْنِ﴾ فالمراد بهما مشرقا الصيف والشتاء، ومغرباهما.

﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ ﴾.

﴿ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا ﴾ أي القريبة منكم ﴿ بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴾ فإن الكواكب بأنفسها، وأوضاع بعضها من بعض زينة، والإنسان إذا نظر في الليلة

المظلمة إلى السماء، ورأى هذه الكواكب، مشرقة متلألئة على سطح أزرق، أبصر غاية الجمال والزينة.

﴿وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ۝٧﴾.

﴿وَحِفْظًا﴾ معطوف على زينة باعتبار المعنى، كأنه قيل: إنا خلقنا الكواكب، زينةً للسماء، وحفظاً ﴿مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ﴾ أي خارجٍ عن الطاعة متمرِّد على ربه، وهو أخبثُ الجنِّ وأشرسُه، لأن الجن فيهم المؤمن والكافر، والبَرُّ والفاجر، والمارد أخبث أقسام الجن.

﴿لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ۝٨﴾.

﴿لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ أصل «يسَّمَّعون» يتسمعون، فأدغمت التاء في السين وشدّدت، والتسمع ضُمّن معنى الإصغاء، يقال سمعتُ حديثه، وإلى حديثه، المعدّىٰ بنفسه يفيد الإدراك، والمعدَّى بإلى يفيد الإصغاء مع الإدراك، والملأ الأعلى الملائكة، لأنهم يسكنون السماوات، والإنسُ والجنُّ هم الملأ الأسفل، لأنهم سكان الأرض، أي لا يطلبون السماع والإصغاء إليهم ﴿وَيُقْذَفُونَ﴾ أي يرمون ﴿مِن كُلِّ جَانِبٍ﴾ من جوانب السماء، إذا قصدوا الصعود إليها.

﴿دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۝٩﴾.

﴿دُحُورًا﴾ أي للدحور، وهو الطرد عن السماع مع الإهانة ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾ أي عذاب شديد دائم، وهو عذاب الآخرة، ففي الدنيا الرجمُ، وفي الآخرة السعير.

﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ۝١٠﴾.

﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ﴾ الخطف: الاختلاس، والمراد اختلاس كلام

الملائكة مسارقة، يعني أخذ شيء من كلامهم بسرعة ﴿فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ﴾ أي تبعه ولحقه، والشهاب ما يرى كأن كوكباً انقض من السماء ﴿ثَاقِبٌ﴾ أي مضيء في الغاية، كأنه يثقب الجوَّ بضوئه، ولا يقال: إن الشيطان من النار فلا يحترق، لأنه ليس من النار الصِّرف، كما أن الإنسان ليس من التراب الخالص، مع أن النار القوية إذا استولت على الضعيفة استهلكتها.

﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَا ۚ إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴿١١﴾﴾.

﴿فَاسْتَفْتِهِمْ﴾ أي سل أهل مكة ﴿أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا﴾ أي أقوى خلقة أو أصعب خلقاً وأشقه؟ ﴿أَم مَّنْ خَلَقْنَا﴾؟ من الملائكة والسماء والأرض؟ ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾ لاصق، لزج، وهذه شهادة عليهم بالضعف، لأن ما يصنع من الطين، غير موصوف بالصلابة والقوة، وقد علموا أن الإنسان الأول إنما تولد منه، لاعترافهم بقصة آدم عليه السلام، وشاهدوا تولد كثير من الحيوانات منه، ومادتهم الأصلية هي الطين اللازب، وهما باقيان، وقدرة الفاعل ذاتية، لا تتغير، فمن أين استنكروا أن يُخلقوا من تراب مثله، حيث قالوا: ﴿أَإِذَا كُنا تُرَاباً وَعِظَاماً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾؟.

﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾﴾.

﴿بَلْ عَجِبْتَ﴾ من قدرة الله تعالى، على خلق هذه الخلائق العظيمة، وإنكارهم البعث، وقيل: عَجَبُ النبي ﷺ أنه كان يظنُّ أن كلَّ من يسمع القرآن، يؤمن به، فلما سمع المشركون القرآن وسخروا منه، عجب من ذلك ﴿وَيَسْخَرُونَ﴾من تعجبك وتقريرك للبعث والنشور.

﴿وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾﴾.

﴿وَإِذَا ذُكِّرُوا﴾ أي دأبهم المستمر أنهم إذا وُعِظُوا بشيء من المواعظ ﴿لَا يَذْكُرُونَ﴾ لا يتَّعظون، لغاية بلادتهم، وقصور فكرهم، والقومُ كانوا

يستبعدون الحشر، إلى حيث كانوا يسخرون ممن يصدّق به، فلا طريق إلى إزالة هذا الاستبعاد عنهم إلا من وجهين: أحدهما أن يُذكر الدليل الدال على صحة الحشر، فذُكِر الدليلُ، ولكنهم لشدة بلادتهم وجهلهم، لم ينتفعوا بهذا النوع من البيان، والوجه الثاني: أن يثبت الرسول ﷺ رسالته بالمعجزات، لأولئك المنكرين، ولم ينتفعوا بهذا الطريق أيضاً، ولهذا عقَّبه بقوله سبحانه:

﴿ وَإِذَا رَأَوْا۟ ءَايَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾ ﴾.

﴿ وَإِذَا رَأَوْا۟ ءَايَةً ﴾ أي معجزة تدل على صدق القائل بالبعث ﴿ يَسْتَسْخِرُونَ ﴾ أي يبالغون في السخرية، أو يستدعي بعضهم من بعض أن يسخر منها، لأنهم أَلِفُوا السخرية والتكذيب.

﴿ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ ﴾.

﴿ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ ﴾ أي ما هذا الذي نراه من الآيات الباهرة ﴿ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ أي ظاهر سحريته، واضح أنه عمل ساحر، لا يخفى على أحدٍ أمره.

﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ ﴾.

﴿ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا ﴾ أي كان بعض أعضائنا تراباً، وبعضها عظاماً نخرة ﴿ أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴾ أي أنبعث بعد موتنا وفنائنا؟ وتكرير الهمزة والتصدير بإن واللام، لتأكيد الإنكار.

﴿ أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ ﴾.

﴿ أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴾ أي أيبعث أيضاً آباؤنا الأولون؟ أي الأقدمون، فمرادهم زيادة الاستبعاد، بناءً على أنهم أقدم، فبعثهم أبعد على زعمهم.

﴿ قُلْ نَعَمْ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ .

﴿ قُلْ ﴾ تبكيتاً لهم ﴿ نَعَمْ ﴾ ستبعثون ﴿ وَأَنتُمْ دَٰخِرُونَ ﴾ أي صاغرون وإنما اكتفى به في الجواب، لقيام المعجزات على صدق المخبِر عن وقوعه، فكان قوله: ﴿نَعَمْ﴾ دليلاً قاطعاً على الوقوع.

﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ .

﴿ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴾ أي تستصعبون البعثة، وما هي إلا صيحة واحدة، ينفخ فيها إسرافيل في الصور للقيام من القبور، من زجر الراعي غنمه إذا صاح عليها، ثم كثر استعمالها حتى صارت بمعنى الصيحة، لأنها تزجر الموتى عن الرقود في القبور ﴿ فَإِذَا هُمْ ﴾ قائمون من مراقدهم أحياء ﴿ يَنظُرُونَ ﴾ أي يبصرون كما كانوا قبل الموت.

﴿ وَقَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿٢٠﴾ ﴾ .

﴿ وَقَالُوا۟ ﴾ أي المبعوثون ﴿ يَٰوَيْلَنَا ﴾ أي يا هلاكنا أُحْضُرْ فهذا أوان حضورك ﴿ هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴾ أي اليوم الذي نُجازى فيه بأعمالنا.

﴿ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ .

﴿ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴾ هو كلام الملائكة جواباً لهم، بطريق التوبيخ، أي هذا يوم الفصل بين الخلائق، الذي كنتم تسخرون منه وتكذبون به.

﴿ ۞ ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ .

﴿ ۞ ٱحْشُرُوا۟ ﴾ اجمعوا ﴿ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ﴾ أي أشركوا بالله، وهو خطاب من

الله تعالى للملائكة ﴿وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ أي أشباههم، ونظراءهم، كعابد الصنم مع عبدته، وأهل الخمر مع أهل الخمر، والزاني مع الزناة﴿وَمَا كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ﴾.

﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾﴾.

﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ من الأصنام ونحوها، زيادةً في تحسيرهم، وتخجيلهم، وفيه دليل على أن ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ هم المشركون ﴿فَٱهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ﴾ أي عرفوهم طريق جهنم، ووجِّهوهم إليها، وفيه تهكم بهم، لأن الهداية تكون إلى السعادة والنعيم، لا إلى دركات الجحيم!!.

﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿وَقِفُوهُمْ﴾ احبسوهم في الموقف، عند صراط الجحيم ﴿إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾ أي سَيُسْأَلون عن جرائمهم والوقوف ليس لعفوٍ عنهم، ولا ليستريحوا، بل ليسألوا عما ينطق به قوله تعالى:

﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

﴿مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ﴾ أي يقال لهم بطريق التوبيخ: ما لكم لا ينصر بعضكم بعضاً، كما كنتم تزعمون في الدنيا؟ وهو وقت إنجاز العذاب، وشدة الحاجة إلى النصرة.

﴿بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾ أي منقادون، خاضعون لظهور عجزهم، وانسداد الحيل عليهم.

﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ هم الأتباع والرؤساء، ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾ أي يسأل بعضهم بعضاً، سؤال توبيخ بطريق الخصومة.

﴿قَالُوٓاْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿قَالُوٓاْ﴾ أي الأتباع للرؤساء ﴿إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا﴾ في الدنيا ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ﴾ أي عن أقوى الوجوه بالقوة والإجبار، تزينون لنا الباطل، وتصدوننا عن الهدى، كأنكم تنفعوننا، فتبعناكم.

﴿قَالُواْ بَل لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿قَالُواْ﴾ أي الرؤساء أوالقرناء ﴿بَل لَّمْ تَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي لم نمنعكم عن الإيمان، بل لم تؤمنوا باختياركم مع تمكنكم منه، وآثرتم الكفر عليه.

﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍۖ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍۖ﴾ من قوة وتسلط عليكم، نسلبكم به اختياركم ﴿بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ﴾ أي مختارين للطغيان.

﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآۖ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾﴾.

﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا﴾ أي ثبت علينا ﴿قَوْلُ رَبِّنَآۖ﴾ وهو قوله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[1] ﴿إِنَّا لَذَآئِقُونَ﴾ أي العذاب الذي ورد به الوعيد.

﴿فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ﴿٣٢﴾﴾.

---

(١) سورة ص، آية: ٨٥.

﴿فَأَغْوَيْنَٰكُمْ﴾ أي فدعوناكم إلي الغيِّ، فاستجبتم لنا باختياركم ﴿إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ﴾ فلا عتاب علينا في تعرضنا لإغوائكم.

﴿فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿فَإِنَّهُمْ﴾ أي الأتباع والمتبوعين ﴿يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ حسبما كانوا مشتركين في الغواية والضلالة، الجميع في نار جهنم.

﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ﴾ أي مثل ذلك الفعل الذي تقتضيه الحكمة التشريعية ﴿نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ﴾ المتناهين في الإجرام، وهم المشركون، وهذا يدل على أن لفظ «المجرم» المطلق، مختص في القرآن الكريم بالكافر، لقوله سبحانه:

﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ بالدعوة والتلقين ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ عن القبول، وعن قول «لا إله إلا الله» ويعظم عليهم أن يتركوا الأصنام والأوثان.

﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾﴾.

﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾؟ يعنون الرسول ﷺ، قاتلهم الله أنى يؤفكون، قال الله تعالى رداً عليهم:

﴿بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ أي ليس الأمر كما يفترون، بل جاءهم محمد عليه السلام بالتوحيد، والإسلام، الذي هو الحقُّ القاطع، الذي أجمع عليه كافة الرسل عليهم السلام، فأين الشعر والجنون من ساحته الرفيعة؟.

﴿ إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا۟ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ ﴾.

﴿ إِنَّكُمْ ﴾ بما فعلتم من الإشراك والتكذيب والاستكبار ﴿ لَذَآئِقُوا۟ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴾ والالتفات لإظهار الغضب عليهم.

﴿ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾.

﴿ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ أي جزاء ما كنتم تعملونه في الدنيا، من الشرك والتكذيب.

﴿ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾.

﴿ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ استثناء منقطع من ضمير ذائقوا، والمعنى: إنكم لذائقوا العذاب، لكنَّ عباد الله المخلصين ليسوا كذلك.

﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ ﴾.

﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ﴾ إشارة إليهم، للإيذان بأنهم ممتازون بما اتصفوا به من الإخلاص، عمن عداهم ﴿ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴾ أي معلوم الخصائص من حسن المنظر، ولذة الطعم، وطيب الرائحة، ونحوها من نعوت الكمال.

﴿ فَوَٰكِهُ ۖ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾.

﴿ فَوَٰكِهُ ﴾ أي ذلك الرزق فواكه، وتخصيصها بالذكر، لأن أرزاق أهل

الجنة كلها فواكه، أي ما يؤكل فيها لمجرد التلذذ، لا لدفع الجوع، لأنهم مستغنون عن القوت، لكون خلقتهم محكمة، محفوظة من التحلل، المحوج إلى البدل ﴿وَهُم مُّكْرَمُونَ﴾ عند الله تعالى لا يلحقهم الهوان، ويصل إليهم رزقهم بغير تعب ولا نصب.

﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾﴾.

﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ أي في جنات ليس فيها إلا نعيم.

﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ أي متواجهين، ينظر بعضُهم إلى وجوه بعض، لدوام الأُنس والسرور.

﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿يُطَافُ عَلَيْهِم﴾ في الخدمة ﴿بِكَأْسٍ﴾ بإناء فيه خمر، أو بخمر، فإن الكأس تطلق على نفس الخمر، وعن الأخفش «كل كأس في القرآن فهي الخمر» ﴿مِّن مَّعِينٍ﴾ أي كائنة من شراب معين، وهو الجاري على وجه الأرض، تراها العيون، وصف تعالى به الخمر، لأنها تجري في الجنة في أنهار، كما يجري الماء، قال تعالى: ﴿وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ﴾[1].

﴿بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿بَيْضَآءَ﴾ خمر الجنة أشد بياضاً من اللبن ﴿لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ وصفها بلذة للمبالغة، كأنها نفس اللذة، لأن من شربها بلتذُّ بها لذَّةً غامرة.

---

(١) سورة محمد، آية: ١٥.

﴿ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾.

﴿ لَا فِيهَا غَوْلٌ ﴾ أي غائلة كما في خمور الدنيا، ومن مفاسد خمر الدنيا صداع الرأس، والقيء، ووجع المعدة، وكثرة البول، والسكر ﴿ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴾ أي يسكرون، من أنزف الشارب إذا ذهب عقله، أفرد هذا بالنفي مع اندراجه فيما قبله، لما أنه من معظم مفاسد الخمر.

﴿ وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ ﴾.

﴿ وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ ﴾ قصرن أبصارهن على أزواجهن، لا يَمْدُدْنَ طرفاً إلى غيرهم ﴿ عِينٌ ﴾ نجل العيون، والنَّجَلُ: سعة العين أي حسان الأعين عظامها، مع غاية الحسن والجمال.

﴿ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾ ﴾.

﴿ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴾ أي مصون ومستور، شبهن ببيض النعام، لأنها تكنها بالريش من الريح والغبار، فيكون لونها أبيض مخلوطاً بأدنى صفرة، ويقال: هذا أحسن ألوان الأبدان[1].

﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾.

---

(١) أخبر تعالى عن نساء أهل الجنة، أنهن عفيفات، قصرن أعينهنَّ عن النظر إلى غير أزواجهن، وهنَّ مع العفة واسعات العيون، جميلات اللون، كأنهن اللؤلؤ المكنون في أصدافه، وهذا قول ابن عباس، واستشهد عليه بقوله تعالى: ﴿وحور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون﴾ والغرضُ أنهن مع هذا الجمال الباهر، مصونات كالدُّرِّ في أصدافه، مع رقة، ولطف، ونعومة، اللهم لا تحرمنا نعيم الجنة، ومتعنا بالحور العين، يا أرحم الراحمين.

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ﴾ يعني أهل الجنة ﴿عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ يتحادثون عمَّا جرى لهم وعليهم في الدنيا، كما قال القائل:

وما بَقِيتْ من اللَّذَاتِ إلاَّ أحادِيثُ الكِرَامِ عَلىٰ المُدَامِ

﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾﴾.

﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ﴾ في تضاعيف محاوراتهم ﴿إِنِّي كَانَ لِي﴾ في الدنيا ﴿قَرِينٌ﴾ أي صاحب لا يؤمن باليوم الآخر.

﴿يَقُولُ أَئِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾﴾.

﴿يَقُولُ﴾ لي على طريق التوبيخ بما كنت عليه من الإيمان، والتصديق بالبعث ﴿أَئِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ﴾؟ أي بالبعث، ويقول تعجباً.

﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾﴾.

﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَءِنَّا لَمَدِينُونَ﴾؟ أي لمبعوثون ومجزيون؟ من الدِّين بمعنى الجزاء، يقول هذا على سبيل الاستهزاء والإنكار.

﴿قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾﴾.

﴿قَالَ﴾ أي ذلك القائل، بعدما حكى لجلسائه مقالة قرينه في الدنيا ﴿هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ﴾؟ أي إلى أهل النار لأُريكم ذلك القرين، يريد بذلك بيان صدقه فيما حكاه، بمعنى هل تحبون أن تطلعوا على أهل النار، لأريكم ذلك القرين؟.

﴿فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾﴾.

﴿فَٱطَّلَعَ﴾ عليهم ﴿فَرَءَاهُ﴾ أي قرينه ﴿فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴾ أي في وسطها.

﴿ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرۡدِينِ ﴿٥٦﴾ ﴾.

﴿ قَالَ ﴾ أي القائل لقرينه شامتاً به ﴿ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرۡدِينِ ﴾ أي والله لقد قاربتَ أن تهلكني بإغوائك لي.

﴿ وَلَوۡلَا نِعۡمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾.

﴿ وَلَوۡلَا نِعۡمَةُ رَبِّي ﴾ بالهداية والعصمة ﴿ لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُحۡضَرِينَ ﴾ أي من الذين أحضروا العذاب، معك في النار، ثم يخاطبه مستهزئاً ساخراً، كما كان الكافر يسخر منه في الدنيا فيقول له:

﴿ أَفَمَا نَحۡنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوۡتَتَنَا ٱلۡأُولَىٰ وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ ﴾.

﴿ أَفَمَا نَحۡنُ بِمَيِّتِينَ * إِلَّا مَوۡتَتَنَا ٱلۡأُولَىٰ وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾؟ أي هل لا تزال على اعتقادك، بأننا لن نموت إلا موتة واحدة، وأنه لا بعث، ولا حساب، ولا جزاء؟ وهو أسلوب ساخر لاذع، يظهر فيه التشفِّي من ذلك الصديق الكافر، الذي كان يسخر منه في الدنيا.

﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ هَٰذَا ﴾ أي الأمر العظيم الذي نحن فيه ﴿ لَهُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴾ أي هو السعادة الكاملة، والفوز بالكرامة، التي لا يوازيها شيء من أمور الدنيا ونعيمها.

﴿ لِمِثۡلِ هَٰذَا فَلۡيَعۡمَلِ ٱلۡعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾ ﴾.

﴿ لِمِثۡلِ هَٰذَا فَلۡيَعۡمَلِ ٱلۡعَٰمِلُونَ ﴾ أي يقول تعالى: لنيل هذا المرام الجليل، يجب أن يعمل العاملون، لا للحظوظ الدنيوية.

﴿ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ ﴾.

﴿ أَذَٰلِكَ ﴾ أي أذلك الرزق المعلوم ﴿ خَيْرٌ نُّزُلًا ﴾ أي خير ضيافة وتكريماً ﴿ أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴾؟ أم شجرة الزقوم التي في جهنم؟ والأسلوب أسلوب تهكم وسخرية، لأن النُّزُل في اللغة: الضيافةُ التي تقدَّم للضيف، وأي ضيافة لمن يكون طعامه الزقوم؟ والزقوم طعام أهل النار، وهي شجرة خبيثة مرة، كريهة الرائحة!؟.

﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ ﴾.

﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً ﴾ أي محنة وعذاباً ﴿ لِّلظَّٰلِمِينَ ﴾ في الآخرة، وابتلاءً في الدنيا، فإنهم لما سمعوا أنها في النار استهزؤوا، وقالوا: كيف يمكن ذلك، والنار تحرق الشجر؟ وصارت تلك الشبهة سبباً لتماديهم في الكفر، ولم يعلموا أن من قدر على أن يخلق الزبانية ويمنع النار عن إحراقهم، أقدرُ على خلق الشجر فيها، وحفظه من الإحراق!! ثم قال تعالى:

﴿ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ ﴾.

﴿ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴾ منبتها في قعر جهنم، وأغصانها ترتفع إلى دركاتها.

﴿ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ ﴾.

﴿ طَلْعُهَا ﴾ ثمرها سمي طلعاً لطلوعه أول الإثمار ﴿ كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴾ في تناهي القبح والهول، وهو تشبيه بالمخيَّل، كتشبيه الفائق في الحسن بالمَلك، وتشبيه القبيح الصورة بالشيطان، والعربُ إذا رأت منظراً قبيحاً قالت: كأنه شيطانٌ، لما استقرَّ في الأذهان، من قبح صورة الشيطان.

﴿فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾﴾.

﴿فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا﴾ أي من الشجرة أو من طلعها ﴿فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ﴾ لغلبة الجوع، أو للقسر على أكلها وإن كرهوها، ليكون ذلك باباً من العذاب.

﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾﴾.

﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا﴾ أي بعد ما شبعوا منها وغلبهم العطش، وطال استسقاؤهم كما ينبىء عنه كلمة «ثم» ﴿لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ﴾ الشوب اسم ما يشاب به أي لشراباً من غساقٍ، أو صديد، مشوباً بماء الحميم، يقطع أمعاؤهم، كما قال تعالى ﴿وسُقوا مَاءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَاءهُمْ﴾.

﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾﴾.

﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ﴾ أي مصيرهم ﴿لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ﴾ أي إلى دركاتها، فإن الزقوم والحميم نُزُل يقدم إليهم قبل دخولها، وهذا يدل على أن الحميم خارج عن الجحيم، فهم يوردون الحميم لأجل الشرب، كما تورد الإبل إلى الماء، ثم يوردون إلى الجحيم للاحتراق فيها.

﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾﴾.

﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا﴾ أي وجدوا ﴿ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ﴾ تعليل لاستحقاقهم العذاب بتقليد الآباء، أي وجدوهم ضالين في نفس الأمر.

﴿فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

﴿فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾ يسرعون من غير أن يتدبروا أنهم على الحق،

أو على الباطل، والإهراعُ: الإسراعُ، ولو لم يوجد في القرآن آية، غير هذه الآية، في ذمّ التقليد لكفى.

﴿ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ ﴾.

﴿ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ ﴾ أي قبل قومك ﴿ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ من الأمم السالفة.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴾ أي أنبياء أولي عدد كثير، وذوي شأن خطير، بينوا لهم بطلان ما هم عليه، وأنذروهم عاقبته الوخيمة، ولكنَّ الضالين لم يلتفتوا إلى الإنذار.

﴿ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾.

﴿ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾ من الهول والفظاعة، والخطابُ لكل أحد ممن يتمكن من مشاهدة آثارهم، أي ألم نهلكهم إهلاكاً فظيعاً، ونجعلهم عبرةً للعباد؟.

﴿ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾.

﴿ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ أي إلاَّ الذين آمنوا، بتوفيقهم للإيمان والعمل الصالح، وأخلصوا لله دينهم، فأولئك نجوا من العذاب، وهذه الآية لتسلية النبي ﷺ، ليكون له أسوة بالرسل، حتى يصبر كما صبروا، ويستمر على الدعوة إلى الله.

﴿ وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾.

﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ﴾ أي دعانا مستغيثاً، واللام جواب قسم محذوف، وكذا ما في قوله تعالى: ﴿فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ﴾ أي وبالله لقد دعانا نوح، حين يئس من إيمانهم فأجبناه أحسن الإجابة، فوالله لنعم المجيبون نحن، وهذا يدل على أن النداء بالإخلاص، سبب لحصول الإجابة، والجمع دليل العظمة والكبرياء.

﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾﴾.

﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ أي من الغرق والطوفان، الذي عمَّ قومه الكافرين.

﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾﴾.

﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾ أي الذين ركبوا معه في السفينة من أولاده وأتباعه المؤمنين، وكل من سواهم هلكوا وفنوا، وعن سَمُرة بن جندب، عن النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿وجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ البَاقِينَ﴾ قال: «هم سام، وحام، ويافث»[1].

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٧٨﴾﴾.

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ﴾ من الأمم هذه الكلمة، وهي:

﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾﴾.

﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ﴾ أي أبقينا له ثناءً جميلاً، فيمن بعده من الأنبياء

---

(١) أخرجه الترمذي في التفسير رقم ٣٢٣٠ وقال: حديث حسن غريب، وفي رواية أخرى «سام» أبو العرب، و «حام» أبو الحبش، و «يافث» أبو الروم.

والأمم يسلمون عليه تسليماً ﴿فِي ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي باقية ومستمرة هذه التحية أبداً في العالمين.

﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾﴾.

﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ تعليل لما فُعل به من التكرمة السنية، من إجابة دعائه، وإبقاء ذريته، وتسليم العالمين عليه، أي مثل ذلك الجزاء الكامل، نجزي الكاملين بالإحسان.

﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾﴾.

﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي كان مخلصاً في العبودية لله، كامل الإيمان واليقين، وفي هذا إظهار لجلالة قدر الإيمان.

﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٨٢﴾﴾.

﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ﴾ وهم كفار قومه.

﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾﴾.

﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ﴾ أي وممن شايعه في أصول الدين، وسار على منهاجه وسنته، إبراهيم عليه السلام وما كان بينهما، إلاَّ نبيان: هودٌ، وصالح عليهما السلام، وكان بين نوح وإبراهيم عليهما السلام ألفان وستمائة وأربعون سنة.

﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾﴾.

﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ﴾ أي حين جاء ربه ﴿بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ خالص من الشرك،

والشك، ومن كل دنس المعاصي، كالغل، والغش، والحقد، والحسد، يحب للناس ما يحب لنفسه.

﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾.

﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴾؟ أيْ أيَّ شيءٍ تعبدونه؟.

﴿ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ ﴾.

﴿ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴾؟ أي أتريدون آلهة من دون الله للإفك والكذب والزور؟.

﴿ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾.

﴿ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ أي بمن هو حقيق بالعبادة، لكونه رباً للعالمين، فما ظنكم به، ماذا يفعل بكم، بعد أن أشركتم به وعبدتم غيره؟ هل يترككم بدون عقاب؟.

﴿ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ ﴾.

﴿ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴾ حين سألوه أَلاَ تخرج معنا إلى عيدنا؟ فنظر في النجوم.

﴿ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ ﴾.

﴿ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴾ أي مشارف للسقم، وهو الطاعون، وكان أغلب الأسقام عليهم، وكانوا يخافون العدوى، ويفرون من المطعون، وأراد عليه السلام القول: إني سقيم القلب لكفركم، كما يقال: أنا مريض القلب من كذا فهربوا منه وتركوه وذلك قوله تعالى:

﴿ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾.

﴿ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴾ أي هاربين مخافة العدوى.

﴿ فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ ﴾.

﴿ فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ ﴾ أي ذَهَب إليها في خفية ﴿ فَقَالَ ﴾ للأصنام استهزاءً ﴿ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾؟ أي من الطعام الذي بين أيديكم؟ وكانوا يضعون الطعام أمام أصنامهم لتبارك لهم فيه.

﴿ مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ ﴿٩٢﴾ ﴾.

﴿ مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ ﴾ أي ما لكم لا تجيبوني على سؤالي؟.

﴿ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ ﴾.

﴿ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ﴾ أي فمال مستعلياً عليهم ﴿ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴾ أي يضربهم ضرباً شديداً بيده اليمنى، لأن اليمين أقوى الجارحتين، وقوةُ الآلة تقتضي قوة الفعل، وقيل: ﴿ باليمين ﴾ أي بسبب الحلف وهو قوله: ﴿ وتاللهِ لأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ ﴾.

﴿ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ ﴾.

﴿ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ ﴾ إلى إبراهيم عليه السلام، بعدما رجعوا فرأوا أصنامهم مكسَّرة، وبحثوا عن كاسرها فظنوا أنه هو ﴿ يَزِفُّونَ ﴾ أي يسرعون من زفيف النَّعَام، وهو ابتداء عَدْوِها.

﴿ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ ﴾.

﴿ قَالَ ﴾ أي بعدما أتوا به عليه السلام وجرى بينه وبينهم من المحاورات ما جرى ﴿ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴾ أي ما تنحتونه من الأصنام؟.

﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾.

﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ أي والله خلقكم وخلق أعمالكم، وهو دليلنا في خلق الأفعال، أي الله خالقكم وخالق أعمالكم، فلم تعبدون غيره؟.

﴿ قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَـٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ ﴾.

﴿ قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَـٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴾ في النار الشديدة، المستعرة المحرقة، وهي شدة التأجج.

﴿ فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾.

﴿ فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا ﴾ لمَّا قهرهم بالحجة قصدوا ما قصدوا، لئلا يظهر عجزهم للعامة ﴿ فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴾ أي الأذلين، بإبطال كيدهم، بجعل النار عليه برداً وسلاماً، فصار هو الغالب عليهم، وهم الأذلاء المدحورون.

﴿ وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ ﴾.

﴿ وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى ﴾ أي مهاجر إلى حيث أمرني ربي، لأتجرد لعبادته تعالى، قاله بعد خروجه من النار ﴿ سَيَهْدِينِ ﴾ أي إلى ما فيه صلاح ديني، ودلت الآية على أن الموضع الذي تكثر فيه الأعداء يجب المهاجرة منه، فلمَّا قدم عليه السلام الأرض المقدسة، سأل ربَّه فقال:

﴿ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ ﴾.

﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أي بعض الصالحين، يعينني على الدعوة، ويؤنسني في الغربة، يعني الولد، لأن لفظ الهبة خاص به.

﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾.

﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ فإنه صريح في المبشر به، وعين ما استوهبه، ولقد جمع فيه بشارات ثلاث: بشارة أنه غلام، وحليم، وأنه يبلغ سن الرشد لأن الصغير لا يوصف بذلك.

﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾.

﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ﴾ أي فوهب الله له الولد فنشأ، فلما بلغ رتبة أن يسعى معه في أشغاله وحوائجه، وكان إذ ذاك ابن ثلاث عشرة سنة ﴿قَالَ﴾ إبراهيم عليه السلام ﴿يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾ أي أرى هذه الصورة بعينها، وقيل: إنه رأى ليلة التروية، كأن قائلاً يقول له: إن الله يأمرك بذبح ابنك هذا، فلما أمسى رأى مثل ذلك، فعرف أنه من الله تعالى، فمن ثمة سمي يوم عرفة، ثم رأى مثل ذلك في الليلة الثالثة، فهمَّ بنحره فسمي اليوم يوم النحر، والغلام الذي أمر بذبحه هو إسماعيل عليه السلام، إذ هو الذي وُهب له إثر المهاجرة، وقولُه: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ لا يحسن إلا عند عدم الولد، فثبت أن هذا السؤال وقع حال طلب الولد الأول، وإسماعيل متقدم في الوجود على إسحق، فثبت أن المخاطب هو اسماعيل، ومما يدل عليه قوله سبحانه في سورة هود: ﴿فبشرناها بإسحق ومن وراء إسحق يعقوب﴾. فكيف يؤمر بذبح إسحق وقد وعده بالنافلة أي ولدِ ولدٍ فيه؟ ﴿فَانْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾؟ أي فانظر في الأمر ما رأيك فيه؟ وإنما شاوره فيه وهو أمر محتوم، ليعلم ما عنده فيما نزل، ويكتسب المثوبة والثناء الحسن في الدنيا، وليظهر صبره في طاعة

الله عزَّ وجلَّ، وقد بلغ في الحلم إلى هذا الحد العظيم ﴿قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ﴾ أي ما تؤمر به، وقد علم أن الأنبياء لا يقدمون على مثل ذلك إلاّ بالأمر ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ على الذبح، وإنما علَّق الأمر بمشيئة الله تعالى، على سبيل التبرك.

﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ١٠٣﴾.

﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا﴾ أي استسلما لأمر الله تعالى، وانقادا له، يقال: سلَّم لأمر الله، وأسلم، واستسلم بمعنى واحد ﴿وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ﴾ أي صرعه على شقه، فوقع جبينه على الأرض، وهو أحد جانبي الجبهة، وكان ذلك عند الصخرة من منى.

﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ١٠٤﴾.

﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ﴾ بالعزم على الإتيان بالمأمور به، أي قد حققت ما أمرناك به في المنام، والسبب في هذا التكليف، إظهار كمال طاعة إبراهيم، فلما ظهر منه كمال الطاعة، ومن ولده كمال الانقياد، قال تعالى له:

﴿قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٠٥﴾.

﴿قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ﴾ يعني حصل المقصود من تلك الرؤيا ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ أي كما جزينا هذين المحسنين، فكذلك نجزي كل المحسنين، وهو تعليل لتفريج تلك الكربة بإحسانهما.

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡبَلَٰٓؤُاْ ٱلۡمُبِينُ ١٠٦﴾.

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ﴾ أي الابتلاء البيِّن، الذي يتميز فيه المخلص من غيره، والمحنة البِّينة إذْ لا شيء أصعب من مثل هذا التكليف الشاقّ.

﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾﴾.

﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ﴾ بما يذبح بدله فيتم به الفعل ﴿عَظِيمٍ﴾ أي عظيم الجثة سمين، يفدي به الله نبياً ابن نبي، من نسله سيد المرسلين ﷺ، وكان كبشاً من الجنة.

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾﴾.

﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ * سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ * كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ * وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ أي مقضياً بنبوّته، مقدَّراً كونه من الصالحين، وفي ذكر الصلاح بعد النبوّة، تعظيم لشأنه، وإيماء إلى أنه الغاية لها، لتضمنها معنى الكمال والتكميل بالفعل[1].

﴿وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾﴾.

﴿وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ﴾ على إبراهيم في أولاده ﴿وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ﴾ بأن أخرجنا من صلبه أنبياء بني إسرائيل، وأفضنا عليهما بركات الدنيا والدين ﴿وَمِن

(١) فإن قيل كيف قال تعالى: ﴿إنه من عبادنا المؤمنين﴾ مع أن مرتبة الرسل فوق مرتبة المؤمنين؟ فالجواب: تنبيهاً لنا على جلالة قَدْر الإيمان وشرفه، وترغيباً في تحصيله والثبات عليه.

﴿ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ﴾ في عمله بالإيمان والطاعة ﴿وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ بالكفر والمعاصي ﴿مُبِينٌ﴾ ظاهر ظلمه، وفيه تنبيه على أن النسب لا تأثير له في الهداية والضلالة، وأن الظلم في أعقابهما لا يعود إليهما بنقيصة.

﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ أي أنعمنا عليهما بالنبوة، وغيرها من النعم الدينية والدنيوية.

﴿وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾﴾.

﴿وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ هو تسلط آل فرعون عليهم بألوان العذاب.

﴿وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾﴾.

﴿وَنَصَرْنَٰهُمْ﴾ أي هما وقومهما على عدوهم ﴿فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ عليهم، بعد أن كانوا تحت أيديهم مقهورين.

﴿وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾﴾.

﴿وَءَاتَيْنَٰهُمَا﴾ بعد ذلك ﴿ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ﴾ أي البليغ في البيان والتفصيل، وهو التوراة، التي أنزلها الله هدى لبني إسرائيل.

﴿وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾﴾.

﴿وَهَدَيْنَٰهُمَا﴾ بذلك ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ أي الطريق الموصل إلى الحق والصواب، بما فيه من الأحكام.

﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي ٱلْآخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾ ﴾ .

﴿ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي ٱلْآخِرِينَ * سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ * إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ * ﴾ مرّ تفسيرها .

﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ .

﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ قال أكثر المفسرين هو نبي من أنبياء بني إسرائيل، وقال محمد بن إسحق: هو إلياس بن ياسين، بن فنحاص، بن العيزار، من نسل هرون عليه السلام.

﴿ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ ﴾ .

﴿ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴾ أي ألا تخافون عذاب الله في عبادتكم غيره؟ .

﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ .

﴿ أَتَدْعُونَ بَعْلًا ﴾ أتعبدونه، وتطلبون الخير منه، وهو اسم صنم لأهل بعلبكَّ ﴿ وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴾؟ أي وتتركون عبادة ربكم أحسن الخالقين؟ .

﴿ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ ﴾ .

﴿ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ أي الذي هو خالقكم وخالقُ آبائكم من قبلكم؟ والتعرض لربوبيته تعالى لآبائهم، لتأكيد إنكار تركهم لعبادة الله تبارك وتعالى.

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾.

﴿ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ ﴾ بسبب تكذيبهم ﴿ لَمُحْضَرُونَ ﴾ أي في العذاب.

﴿ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ ﴾.

﴿ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ * وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ * سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ * إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴾ قرأ أي تركنا عليه الثناء العاطر في الأمم بعده، سلام منَّا على إلياس وآله المؤمنين الطيبين، نافع وابن عامر ويعقوب آل ياسين، والباقون إلياسين، والمراد في القراءتين إلياس، قال الزجاج: كما قال ميكال، وميكائيل، كذلك يقال إلياس، وإلياسين.

﴿ وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ ﴾.

﴿ وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ * ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ ﴾ أي أهلكناهم أشد الإهلاك، حيث قلبنا ديارهم، فجعلنا عاليها سافلها. وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل، ولفظُ التدمير يشير إلى أشد أنواع الإهلاك وأفظعه.

﴿ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ ﴾.

﴿ وَإِنَّكُمْ ﴾ يا أهل مكة ﴿ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم ﴾ أي على منازلهم في متاجركم إلى الشام، فإن سدوم في طريقهم ﴿ مُّصْبِحِينَ ﴾؟ داخلين في الصباح.

﴿ وَبِٱلَّيۡلِۗ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿١٣٨﴾ ﴾.

﴿ وَبِٱلَّيۡلِۗ ﴾ أي ومساء، أو نهاراً وليلاً ﴿ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾ أي أتشاهدون ذلك فلا تعقلون؟ حتى تعتبروا به، وتخافوا أن يصيبكم ما أصابهم؟ وإنما لم يختم قصة لوط ويونس بالسلام، لأنه تعالى سلَّم في آخر السورة على جميع الأنبياء المرسلين في قوله: ﴿سُبۡحَانَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ. وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلۡمُرۡسَلِينَ. وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ فأغنى هذا عن السلام عليهما.

﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذۡ أَبَقَ إِلَى ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ ﴿١٤٠﴾ ﴾.

﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ * إِذۡ أَبَقَ إِلَى ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ ﴾ أي هرب، وأصله الهرب من السيد، لكنْ لمَّا كان هربه من قومه، بغير إذن ربه، حسن إطلاقه عليه ﴿إلى الفُلْكِ المَشْحُونِ﴾ أي المملؤ بالرجال والمتاع.

﴿ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُدۡحَضِينَ ﴿١٤١﴾ ﴾.

﴿ فَسَاهَمَ ﴾ أي فقارع أهله ﴿ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُدۡحَضِينَ ﴾ أي فصار من المغلوبين بالقرعة، روي أنه عليه السلام لما وعد قومه بالعذاب، فتأخر عنهم، خرج من بينهم، قبل أن يأمره الله تعالى، فركب السفينة فوقفت، فقالوا: فيها عبد آبق، وفيما يزعم البحارون أن السفينة إذا كان فيها آبقٌ لم تجرِ، فاقترعوا فخرجت القرعة عليه فألقوه في البحر.

﴿ فَٱلۡتَقَمَهُ ٱلۡحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ ﴾.

﴿ فَٱلۡتَقَمَهُ ٱلۡحُوتُ ﴾ أي فابتلعه حوت عظيم الجُثَّة ﴿ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴾ أي وهو آتٍ بما يُلام عليه.

﴿ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ ﴾.

﴿ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴾ أي الذاكرين الله كثيراً بالتسبيح، مدّة عمره، أو في بطن الحوت.

﴿ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ﴾.

﴿ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ أي لبقي في بطن الحوت إلى يوم القيامة، يوم البعث والنشور، وفيه حث على الإكثار من الذكر، فمن أقبل على الله في السراء، أخذ بيده عند الضراء ومكث في بطن الحوت ثلاثة أيام، قاله مقاتل، وقال الحسن: لم يلبث إلا قليلاً.

﴿ ۞ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ ﴾.

﴿ ۞ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ ﴾ بأن حملنا الحوت على لفظه، بالمكان الخالي عما يغطيه، من شجر أو نبت، روي أن الحوت سار في البحر رافعاً رأسه، يتنفس فيه يونس، ويسبِّح الله، حتى انتهى إلى البر، فلفظه سالماً، لم يتغير منه شيء[1] ﴿ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴾ مما ناله، قيل: صار بدنه كبدن الطفل حين يولد، من حرارة جسم الحوت.

﴿ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ ﴾.

---

(١) سبب ذلك أن يونس عليه السلام ضاق صدره بتكذيب قومه له، فأنذرهم بعذاب قريب، وغادرهم مغاضباً لهم لأنهم كذبوه، فقاده الغضب إلى شاطىء البحر، حيث ركب سفينةً مشحونة، فناوءتها الرياح والأمواج في وسط البحر، فقال الملَّاحون: ههنا عبد آبق من سيده، ولا نجاة لنا إلا بإلقائه لننجو من الغرق، فاقترعوا فخرجت القرعة على يونس عليه السلام، ولم يعرف أهل السفينة قدره وأنه نبي، فألقوه في البحر، فالتقمه الحوت فوراً، قال عطاء: أوحى الله إلى الحوت، أني قد جعلت بطنك له سجناً، ولم أجعله لك طعاماً، فلذلك بقي سالماً لم يتغير منه شيء!!.

﴿ وَأَنۢبَتۡنَا عَلَيۡهِ ﴾ أي فوقه مظلة ﴿ شَجَرَةٗ مِّن يَقۡطِينٖ ﴾ وهو كل ما ينبسط على الأرض، والأكثر على أنه الدباء، وقيل: التين، وقيل: الموز يستظل بأغصانه، ويفطر على ثماره، وكان ذلك معجزة له، فأنبته الله تعالى لأجله.

﴿ وَأَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلۡفٍ أَوۡ يَزِيدُونَ ١٤٧ ﴾.

﴿ وَأَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلۡفٍ أَوۡ يَزِيدُونَ ﴾ هم قومه الذين هرب منهم، وهم أهل نينوا، والمراد إرساله السابق قوله: ﴿أَوۡ يَزِيدُونَ﴾ أي في مرأى الناظر، والمراد به هو الوصف بالكثرة.

﴿ فَـَٔامَنُواْ فَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ ١٤٨ ﴾.

﴿ فَـَٔامَنُواْ ﴾ أي بعدما عاينوا علائم حلول العذاب، إيماناً خالصاً، وجدَّدوا الإيمان بمحضره ﴿ فَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ ﴾ إلى أجلهم المسمى، وهو انتهاء أعمارهم.

﴿ فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ أَلِرَبِّكَ ٱلۡبَنَٰتُ وَلَهُمُ ٱلۡبَنُونَ ١٤٩ ﴾.

﴿ فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ أَلِرَبِّكَ ٱلۡبَنَٰتُ وَلَهُمُ ٱلۡبَنُونَ ﴾؟ لما ذكر تعالى أقاصيص الأنبياء الكرام، عاد إلى شرح مذاهب المشركين، وبيان قبحها وسخافتها، فقال: ﴿فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ﴾ أي فاستخبر قومك على سبيل التوبيخ والتجهيل وسلهم: كيف جعلوا للهِ جل وعلا البنات ولأنفسهم البنين؟ وذلك في قولهم: الملائكةُ بنات الله، وهؤلاء زادوا على الشرك ضلالة أخرى، حيث زعموا أن الملائكة بنات الله، وذلك باطل، من وجهين:

الأول: أن العرب يستنكفون من البنت، والشيء الذي يستنكف المخلوق منه، كيف يمكن إثباته للخالق؟ أي فاستخبرهم ألربك البنات، اللاتي هن أوضع الجنسين، ولهم البنون الذين هم أرفعهما؟ فإن ذلك مما لا يقول به من له أدنى شيء من العقل.

والثاني: إثبات أن الملائكة إناث، وهذا أيضاً باطل، لأن طريق العلم، إمَّا الحسُّ، وإما الخبر، وإمَّا النظر، أما الحسُّ فمفقود ههنا، لأنهم ما شاهدوا كيفية خلق الله للملائكة، وهو قوله تعالى:

﴿ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ ﴾.

﴿ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا ﴾؟ أي بل أخلقنا الملائكة الذين هم من أشرف الخلائق، وأبعدهم من صفات الأجسام، ورذائل الطبائع إناثاً، والأنوثة ـ في نظرهم ـ من أخس الصفات؟ ﴿ وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴾ استهزاء بهم، وتجهيل لهم، فإن أمثال هذه الأمور، لا تعلم إلاَّ بالمشاهدة، إذ لا سبيل إلى معرفتها بالعقل، وأما الخبر والنظر فمفقود أيضاً، فثبت بطلان زعمهم.

﴿ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ ﴾.

﴿ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ * وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾ أي إن المشركين من كذبهم وافترائهم، ينسبون إلى الله الذرية والولد، وهم كذبة كفرة، يهرفون بما لا يعرفون، والآية مسوقة لإبطال أصل مذهبهم الفاسد، ببيان أن مبناه ليس إلا الإفك الصريح، والافتراء القبيح.

﴿ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ ﴾.

﴿ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴾؟ إثبات لإفكهم، وتقرير لكذبهم، فيما قالوا ببيان استلزامه لأمر بيِّن الاستحالة هو اصطفاؤه تعالى البنات على البنين، أي هل اختار تعالى لنفسه البنات وفضّلهن على البنين؟.

﴿مَالَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾﴾.

﴿مَالَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾؟ بهذا الحكم الظالم الذي يقتضي ببطلانه بديهةُ العقل.

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾﴾.

﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾؟ أي أتلاحظون ذلك فلا تتذكرون بطلانه؟.

﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾﴾.

﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ﴾؟ أي هل لكم حجة واضحة نزلت عليكم من السماء، بأنَّ الملائكة بناته تعالى؟ ضرورة أن الحكم بذلك، لا بدَّ له من سند حسِّي، أو عقلي، وحيث انتفى كلاهما، فلا بد من سند نقلي.

﴿فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٥٧﴾﴾.

﴿فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أي فأتوني بهذا الكتاب المنزل من عند الله إذا كنتم صادقين؟ وفي هذه الآيات من الإنباء عن السخط العظيم، وتسفيه أحلامهم، ما لا يخفى.

﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾.

﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ﴾ أي جعل المشركون الفجار بين الله عزَّ وجلَّ، وبين الجنَّة قرابةً ونسباً، حيث زعموا أن الله نكح من الجن، فولدت له الملائكة، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً، ودعواهم محض الكذب والبهتان، ولذلك ردَّ تعالى عليهم بقوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ أي وبالله لقد علمت الجنة والشياطين، أن الله يُحضرهم النار، ويعذبهم بها، ولو كانوا منسوبين له تعالى، لَمَا عذَّبهم!؟.

﴿ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ .

﴿ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ أي تنزَّه اللهُ وتقدَّس، عمَّا يصفه به هؤلاء الظالمون، فالله واحد أحد، فرد صمد، لا شريك له، ولا ذرية، ولا بنين، وليس بينه وبين أحد نسب ولا قرابة.

﴿ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾ ﴾ .

﴿ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ استثناء منقطع، أي لكنَّ عباد الله المخلصين ينزهون الله عما يصفه به هؤلاء الضالون.

﴿ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ ﴾ .

﴿ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ * مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ﴾ أي فإنكم ومعبوديكم أيها المشركون، لستم بفاتنين عليه تعالى أحداً، أي لستم بقادرين أن تضلوا أحداً من عباد الله، إلاَّ من قضى الله عليه الشقاوة.

﴿ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾ ﴾ .

﴿ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴾ أي إلا من هو داخلها، لعلمه تعالى بأنه يصير على الكفر، بسوء اختياره، ويصير من أهل النار لا محالة، وأما المخلصون منهم فأنتم بمعزل عن إضلالهم.

﴿ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ ﴾ .

﴿ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴾ الجمهور على أنهم الملائكة، وصفوا بذلك أنفسهم للمبالغة في العبودية، للتنبيه على فساد قول من يقول إنهم أولاد الله، لأن مبالغتهم في العبودية، تدل على اعترافهم بالمعبود جل وعلا، أي وما منا مَلَك من الملائكة، إلا وله مرتبة ومنزلة ووظيفة لا يتعداها، منزلة

مقصورة عليه لا يتجاوزها، خضوعاً لعظمته، وخشوعاً لهيبته، وتواضعاً لجلاله، والآية ردٌّ على من عبد الملائكة، فهم عبيد الله وليسوا شركاء مع الله، فكيف يُعبدون من دون الله؟.

﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ ﴾.

﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴾ في مواقف الطاعة، ومواطن الخدمة.

﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾ ﴾.

﴿ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴾ المقدّسون لله سبحانه وتعالى، عن كل ما لا يليق بجناب كبريائه.

﴿ وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ ﴾.

﴿ وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ ﴾ إن هي المخففة وضمير الشأن محذوف واللام هي الفارقة، أي إن الشأن كانت قريش تقول قبل مبعثه عليه الصلاة والسلام.

﴿ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ ﴾.

﴿ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ أي كتاباً من كتب الأولين، كالتوراة والإنجيل.

﴿ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ ﴾.

﴿ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ أي لأخلصنا العبادة لله تعالى، ولَمَا خالفنا

كما خالف اليهود والنصارى أنبياءهم، وهذا كقولهم: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ﴾[1].

﴿ فَكَفَرُوا بِهِۦ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴾.

﴿ فَكَفَرُوا بِهِۦ ﴾ فجاءهم ذكر عظيم، هو أشرف الأذكار، والمهيمن عليها، وهو القرآن الكريم، فكفروا وكذبوا به، وقالوا عنه أساطير الأولين ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ أي عاقبة كفرهم، وما يحلُّ بهم من الانتقام.

﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ ﴾.

﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ أي وعدنا لهم بالنُّصْرةِ، والغَلَبة.

﴿ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾.

﴿ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ۝ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ أي لهم الغلبة على أعدائهم في الدنيا والآخرة، ولا يقدح انهزامهم في بعض المشاهد، فإن قاعدة أمرهم، وأساسه الظفر، وإن وقع في تضاعيف ذلك شوب من الابتلاء، فالحكم للغالب، وإن لم ينصروا في الدنيا، نصروا في الآخرة.

﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ ﴾.

﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ فأعرض عنهم واصبر على ما ينالك يا محمد ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ وهو الموعد لنصرك عليهم وهو يوم بدر، وقيل يوم الفتح.

﴿ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ ﴾.

---

(١) سورة فاطر، آية: ٤٢.

﴿وَأَبْصِرْهُمْ﴾ على ما ينالهم حينئذٍ من القتل والأسر، وسوء الحال، والمراد بالأمر بإبصارهم: الإيذان بغاية قربه ﴿فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ ما يقع حينئذٍ وسوف للوعيد، أي فسوف يعلمون عاقبة تكذيبِهم بالقرآن، وسخريتهم من الرسول عليه السلام.

﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾﴾.

﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ أي أيستعجلون عذاب الله؟.

﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾﴾.

﴿فَإِذَا نَزَلَ﴾ العذاب ﴿بِسَاحَتِهِمْ﴾ بفنائهم بغتة، صوَّره كأنه جيش عرمرم قد هاجمهم، فأناخ بفنائهم، فشنَّ عليهم الغارة، وقطع دابرهم بالمرة ﴿فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ أي فبئس صباح الكافرين، الذين أُنذروا بالعذاب.

عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ غزا خيبر فلما دخل القرية قال: «الله أكبر، خربت خيبر، إنَّا إذا نزلنا بساحة قومٍ ﴿فساء صباح المنذرين﴾ قالها ثلاث مرات»[1].

﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾﴾.

﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ كرّره تأكيداً للتهديد.

﴿وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾﴾.

﴿وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ تسلية لرسول الله ﷺ إثر تسلية، وتأكيد

---

(١) الحديث أخرجه البخاري ٢/ ٩٠ من فتح الباري.

لوقوع الميعاد، أي انتظرهم وما يبصرونه من أنواع المضار في الدنيا والآخرة، فسوف يبصرون عاقبة كفرهم وتكذيبهم.

﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ ﴾.

﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ ﴾ تنزيه لله تعالى عن كل ما يصفه المشركون، مما لا يليق بجناب كبريائه ﴿ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ ﴾ والإضافة لاختصاص العزة به تعالى، إذ لا عزة ولا غلبة إلا لله جل وعلا ﴿ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ أي عما يصفه به المشركون من الزوجة والولد.

﴿ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ ﴾.

﴿ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ تشريف لهم، وإيذان بأنهم سالمون عن كل المكاره، فائزون بجميع المآرب.

﴿ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾ ﴾.

﴿ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ على ما أفاض عليهم، وعلى من اتبعهم من النعم، وحسن العاقبة، والغرض منه تعليم المؤمنين أن يقولوه، لما رُوي عن علي رضي الله عنه أنه قال: «من أحبَّ أن يكتال بالمكيال الأوفى، من الأجر يوم القيامة، فليكن آخر كلامه، إذا قام من مجلسه ﴿سُبحَانَ رَبكَ رَبِّ ٱلعَزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ، وَسَلامٌ عَلَى ٱلمُرسَلِينَ، وَٱلحَمدُ لله رَبِّ ٱلعَـٰلَمِينَ﴾[1]. والصلاة والسلام على سيد المرسلين محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ونسأل الله تعالى حسن الخاتمة والعافية في الدنيا والآخرة.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة الصافات»

* * *

(١) أخرجه ابن أبي حاتم موقوفاً عن علي رضي الله عنه، وانظر الدر المنثور للسيوطي ٥/ ٢٩٥.

سُورَةُ صٓ

مكية وهي ثمان وثمانون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿صٓۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ۝١﴾ .

﴿صٓۚ﴾ قيل اسم للسورة، وقيل: اسم للحرف، وقيل هو مفتاح اسمه «الصمد»[1] ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ الواو للقسم، والذكر بمعنى الشرف والنباهة، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾[2] أي أقسم بالقرآن ذي الشرف الرفيع، وذي الشأن والمكانة الجليلة وجواب القسم محذوف تقديره أقسم بالقرآن إنه لمعجز، وإن محمداً لصادق.

﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ۝٢﴾ .

﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ إضراب عن ذلك كأنه قيل: لا ريب فيه

---

(١) الراجح عند أئمة التحقيق من المفسرين، أن الحروف المقطَّعة ـ حروف الهجاء ـ في أوائل السور الكريمة، إنما وردت للتنبيه على إعجاز القرآن الكريم، وأنه منظوم من أمثال هذه الحروف التي ينطقون بها، وانظر ما كتبناه حول هذا الموضوع في كتابنا «صفوة التفاسير» ١/ ٧.

(٢) سورة الزخرف، آية: ٤٤.

قطعاً، وليس عدم إذعان الكفرة له، لشائبةِ ريب فيه، بل هم في استكبار وشقاق لله ولرسوله، ولذلك لا يذعنون له، والتنكير في ﴿عزة وشقاق﴾ للدلالة على شدتهما، أي هم غطرسة وكبرياء، ومعاداةٍ لله ورسوله شديده.

﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴿٣﴾ ﴾.

﴿ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ ﴾ وعيد لهم على كفرهم واستكبارهم، ببيان ما أصاب مَنْ قبلهم من المستكبرين والمعنى: وكثيراً أهلكنا من القرون الخالية ﴿فَنَادَوا﴾ عند نزول بأسنا، استغاثة وتوبةً، لينجوا من ذلك، كقوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ﴾[1] ﴿ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴾ أي نادَوْا طلباً للنجاة، والحال أن ليس الحين ﴿ حِينَ مَنَاصٍ ﴾ أي نجاة، و «لا» هي المشبهة بليس، زيدت عليها تاء التأنيث للتأكيد، وخُصَّت بنفي الأحيان، والمناص: المنجا، والغوثُ يُقال: نَاصَه إذا أغاثه.

﴿ وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ ﴾.

﴿ وَعَجِبُوا أَن جَاءَهُم ﴾ أي من أن جاءهم ﴿ مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ﴾ من جنسهم وهو محمد رسول الله ﷺ، عجبوا من بعثته، وعدُّوا ذلك أمراً عجيباً، خارجاً عن احتمال الوقوع ﴿ وَقَالَ الْكَافِرُونَ ﴾ وضع الظاهر موضع الضمير غضباً عليهم وإيذاناً بأنه لا يتجاسر على مثل ما يقولون، إلاَّ المتوغلون بالكفر والفسق ﴿ هَذَا سَاحِرٌ ﴾ فيما يظهره من الخوارق ﴿ كَذَّابٌ ﴾ فيما يسنده إلى الله تعالى من الإرسال والإنزال.

﴿ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ ﴾.

---

(١) سورة المؤمنون، آية: ٦٤.

﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾؟ أي أزعم أن الربّ المعبود واحد لا إله إلاَّ هو؟ ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ أي بليغ في العجب، والعجبُ الذي له مثل، والعُجابُ الذي لا مثل له، فهو أبلغ من العجب، وذلك لأنه خلاف ما ألفوه هم وآباؤهم، الذين أجمعوا على ألوهية الأوثان، وواظبوا على عبادتهم، كابراً عن كابر، فكان مدار أمور دينهم هو التقليد والاعتياد، فيعدون ما يخالف ما اعتادوه عجيباً بل محالاً، روي أنه لما أسلم عمر بن الخطاب رضي الله عنه، شقَّ ذلك على قريش، فاجتمع خمسة وعشرون من صناديدهم، فأتوا أبا طالب، فقالوا أنت شيخنا، وقد أتيناك لتقضي بيننا وبين ابن أخيك، فأرسل إليه أبو طالب يدعوه إلى المجلس، فلما أتى النبيُّ ﷺ، قال له: يا بن أخي هؤلاء قومك، يسألونك العدل فلا تمل كلَّ الميل على قومك، فقال ﷺ: ماذا تسألونني؟ قالوا ارفضنا وارفضْ ذكر آلهتنا، ونَدَعَك وإلَهك!! فقال ﷺ: أتعطوني كلمة واحدةً، تملكون بها العربَ، وتدين لكم بها العَجَم؟ قالوا: نعم وعشراً، فقال: قولوا: ﴿لا إله إلا الله﴾ فقاموا وقالوا: ﴿أجعل الآلِهَةَ إلهاً واحِداً﴾[1]؟.

﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾﴾.

﴿وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ﴾ أي من قريش من مجلس أبي طالب، بعدما أسكتهم الرسول ﷺ بالجواب المفحم، وشاهدوا تصلبه في الدين، ويئسوا مما كانوا يرجونه من المصالحة على الوجه المذكور، أي خرجوا من المجلس يقول بعضهم لبعض: ﴿أَنِ ٱمْشُوا۟﴾ أي قائلين بعضهم لبعض على وجه النصيحة امشوا ﴿وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ﴾ أي واثبتوا على عبادتها ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ﴾ أي هذا الذي شاهدناه من محمد، أمر مدبَّر، يريد من ورائه

(١) تفسير ابن كثير ٤/ ٤٧.

أن يصرفكم عن دين آبائكم، لتكون له العزة والسيادة، فاحذروا أن تطيعوه فيفسد عليكم دينكم.

﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَٰذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ ﴿٧﴾﴾.

﴿مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا﴾ الذي يقوله ﴿فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ﴾ أي في الملة النصرانية، التي هي آخر الملل، فإنهم يقولون بالتثليث لا بالتوحيد، أو يريدون ليس هذا في الملة التي كان عليها آباؤنا[1] ﴿إِنْ هَٰذَا﴾ أي ما هذا ﴿إِلَّا اخْتِلَاقٌ﴾ أي كذب اختلقه من تلقاء نفسه.

﴿أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا ۚ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي ۖ بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ ﴿٨﴾﴾.

﴿أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ﴾ أي القرآن ﴿مِنْ بَيْنِنَا ۚ﴾؟ ونحن رؤساء الناس، ومرادهم إنكار كونه منزلاً من عنده عزَّ وجل، كقولهم: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ وأمثال هذه المقالات، دليلٌ على أن مناط تكذيبهم ليس إلاَّ الحسد، والتكالب على حطام الدنيا ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي ۖ﴾ أي هم في شك من القرآن والوحي، لميلهم إلى التقليد، وإعراضهم عن النظر، في الأدلة المؤدية إلى العلم بحقِّيته، فهم مذبذبون بين الأوهام، ينسبونه تارة إلى السحر، وأخرى إلى الاختلاق، ﴿بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ﴾ أي بل لم يذوقوا عذابي، فإذا ذاقوه تبيَّن لهم حقِّيتُه؛ وفي «لمَّا» دلالةٌ على أن ذوقهم على شرف الوقوع.

---

(١) قال ابن عباس: يعنون بالملة الآخرة دين النصرانية، فليس عندهم التوحيد بل التثليث، وقال مجاهد وقتادة: يعنون دين قريش أي ليس هذا في الدين الذي أدركنا عليه آباءنا.

﴿ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴿٩﴾ ﴾ .

﴿ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴾؟ بل أعندهم خزائن رحمته تعالى، يتصرفون فيها حسبما يشاؤون؟ ويتحكمون فيها بمقتضى آرائهم، فيتخيَّروا للنبوَّة بعض صناديدهم؟ والحال أن النبوة عطية من الله تعالى، يتفضل بها على من يشاء من عباده، لا مانع له فإنه ﴿ٱلعَزِيزِ﴾ أي الغالب الذي لا يُغالب ﴿ٱلوَهَّابِ﴾ الذي له أن يهب ما يشاء لمن يشاء.

﴿ أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ﴿١٠﴾ ﴾ .

﴿ أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ ﴾؟ أي ألهم ملك هذه العوالم، العلوية والسفلية، حتى يتكلموا في الأمور الربانية، ويتحكموا في التدابير الإلٰهية، التي استأثر بها رب العزة والجلال؟ ﴿ فَلْيَرْتَقُوا۟ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ﴾ جواب شرط محذوف، أي إن كان لهم ما ذكر من الملك، فلْيصعدوا في المعارج التي يتوصل بها العرش، ويدبِّروا أمر العالم، وينزلوا الوحي إلى من يختارون؟ وفيه من التهكّم بهم، ما لا غاية وراءه.

﴿ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴿١١﴾ ﴾ .

﴿ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴾ أي هم جند من الكفار، المتحزبين على الرسل، مهزومون مكسورون عمَّا قريب، فمن أين لهم التدابير الإلٰهية؟ فلا تبال بما يقولون يا محمد، و«ما» مزيدة للتقليل والتحقير، نحو أكلتُ شيئاً ما، والإشارة في ﴿هنالك﴾ إلى فتح مكة، والمعنى سيصيرون مهزومين في مكة.

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ ﴾ .

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ﴾ أي قبل أهل مكة ﴿قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ﴾ ذكر تعالى الأشقياء الفجار ممن كذبوا الرسل، وهم قوم نوح، وعاد قوم هود، وفرعون الطاغية الجبار، ووصف فرعون بذي الأوتاد أي ذي الملك الثابت، والمباني الضخمة العظيمة[1]، قال الشاعر:

وَلَقَدْ غَنُوا فِيهَا بِأَنْعَمِ عِيشَةٍ ... فِي ظِلِّ مُلْكٍ ثَابِتِ الأوتَادِ

وقيل: إنه كان ينصب الخشب في الهواء، وكان يمد يدي المعذّب ورجليه إلى تلك الخُشب الأربعة، ويضرب على كل واحد من هذه الأعضاء وتداً، ويتركه معلقاً في الهواء حتى يموت.

﴿وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لْـَٔيْكَةِ أُولَٰئِكَ الْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾﴾.

﴿وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ لْـَٔيْكَةِ﴾ هم قوم شعيب عليه السلام ﴿أُولَٰئِكَ الْأَحْزَابُ﴾ الذين تحزبوا على الأنبياء عليهم السلام، وفيه تنبيه على أن مشركي مكة ضرب من أولئك الأحزاب.

﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾﴾.

﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ﴾ أي ما كل أحد من آحاد أولئك الأحزاب، إلا كذب الرسل، لأن تكذيب واحد منهم تكذيبٌ لهم جميعاً، لاتفاق الكل على الحق ﴿فَحَقَّ عِقَابِ﴾ أي ثبت ووقع على كل منهم عقابي.

---

(١) هذا القول مروي عن الضحاك، وقد رجحه ابن عطية، ويدل عليه قوله سبحانه ﴿كم تركوا من جنات وعيون. وزروع ومقام كريم. ونعمة كانوا فيها فاكهين﴾ فالمراد بالمقام الكريم: الدورُ والقصور الفخمة، وكذلك قال الزمخشري إن ذلك استعارة في ثبات الملك، واستشهد بقول الأسود بن يعفر «في ظلِّ مُلْكٍ ثابت الأوتاد».

﴿ وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾ ﴾ .

﴿ وَمَا يَنظُرُ ﴾ أي ينتظر ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ أي كفار قريش أي ما ينتظر هؤلاء الكفرة ﴿ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً ﴾ هي النفخة الثانية، أي ليس بينهم وبين حلول ما أُعِدَّ لهم من العقاب، إلا هي، حيث أخرت عقوبتهم الشديدة إلى الآخرة ﴿ مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴾ أي من توقف مقدار فواق، وهو مقدار ما بين الحلبتين، لأن الناقة تُحلب ثم تترك سُويعة يرضعها الفصيل، لإدرار اللبن، ثم تحلب ثانية، يعني إذا جاء وقت الصيحة لم تستأخر هذا القدر من الزمان، وهو عبارة عن الزمان اليسير.

﴿ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿١٦﴾ ﴾ .

﴿ وَقَالُوا۟ ﴾ كفار مكة ﴿ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴾ أي قالوا بطريق الاستهزاء والسخرية عند سماعهم بتأخير عقابهم إلى الآخرة: يا ربنا عجل لنا نصيبنا من العذاب، الذي توعدنا به، ولا تؤخره إلى يوم الحساب، والقِطُّ: القطعة من الشيء، والحظُّ والنصيب.

﴿ ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ ﴾ .

﴿ ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾ من أمثال هذه المقالات الباطلة ﴿ وَٱذْكُرْ ﴾ أي تذكّر ﴿ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ﴾ أي تذكر قصته، وصن نفسك أن تزل فيما كلفت به من مصابرتهم، وتحمل أذيتهم ﴿ ذَا ٱلْأَيْدِ ﴾ المراد بالأيد: القوة، وهي قوة في الدين، أي ذا القوة على أداء العبادة، والاحتراز عن المعاصي ﴿ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾ أي رجَّاع إلى مرضاة الله تعالى، عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ أحب الصيام إلى الله، صيامُ داود، كان يصوم يوماً،

ويفطر يوماً، وأحب الصلاة إلى الله، صلاة داود، كان ينام نصف الليل، ويقوم ثلثه، وينام سدسه»[1].

﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ ﴾.

﴿ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ ﴾ أي تسبِّح بتسبيحه، وتسبيحُ الجبال حقيقة وكان معجزة لداود عليه السلام ﴿ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ ﴾ أي في المساء والصباح.

﴿ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ ﴾.

﴿ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً ﴾ أي مجموعة حوله، روي أنه عليه السلام كان إذا سبَّح، جاوبته الجبال بالتسبيح، واجتمعت إليه الطير، فسبحت بتسبيحه، وذلك حشرها ﴿ كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ ﴾ أي كل واحد من الجبال والطير، لأجل تسبيحه، رجَّاع إلى التسبيح.

﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ ﴿٢٠﴾ ﴾.

﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ ﴾ أي قوَّيناه بالهيبة والنصرة، وكثرة الجنود ﴿ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ ﴾ أي النبوة، وكمال العلم، وإتقان العمل ﴿ وَفَصْلَ الْخِطَابِ ﴾ أي الكلام البيِّن الفصيح الذي ينبه المخاطب على المرام، من غير التباس.

﴿ ۞ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ ﴾.

﴿ ۞ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ ﴾ استفهام معناه التعجب، والتشويق إلى استماع ما في حيزه من الأنباء البديعة، والخصم يُطلق على الواحد، وما فوقه، كالضيف ﴿ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴾ أي صعدوا عُلْو المحراب من سوره،

---

(١) الحديث أخرجه البخاري رقم ١٣٣١، ومسلم رقم ١٨٩.

والسور الحائط المرتفع، ونظيره تسنَّمه إذا علا سَنَامه، وتذرَّاه إذا علا ذُروته.

﴿ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ ﴾.

﴿ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ﴾ أي خاف منهم، لأنهم نزلوا عليه من فوق، على خلاف العادة، في غير يوم الحكومة، لأنه عليه السلام جزَّأ زمانه أربعة أجزاء، يوماً للعبادة، ويوماً للقضاء، ويوماً للوعظ، ويوماً للاشتغال بخاصة نفسه ﴿ قَالُوا۟ ﴾ إزالة لفزعه ﴿ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ ﴾ أريد بهما شخصان أي فوجان متخاصمان ﴿ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ هو على الفرض وقصد التعريض إن كانوا ملائكة وهو المشهور ﴿ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ ﴾ ولا تجاوز الحدَّ في الحكومة ﴿ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴾ إلى وسط طريق الحق، وهو العدل، فقال عليه السلام تكلما فقال أحدهما.

﴿ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى ﴾ أي في الدين أو في الصحبة، والتعرض لذلك لبيان قبح ما فعل به صاحبه ﴿ لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴾ هي الأنثى من الضأن، وقد يُكنى بها عن المرأة ﴿ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا ﴾ وحقيقية اجعلني أكفلها كما أكفل ما تحت يدي، وقيل: اجعلها كفلي أي نصيبي ﴿ وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴾ أي وغلبني في مخاطبته إياي محاجة بأن جاء بحجاج لم أقدر على رده.

﴿ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾ ﴾ .

﴿ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ ﴾ جواب قسم محذوف قصد به عليه السلام المبالغة في الإنكار، ولعله قال ذلك بعد اعتراف صاحبه بما ادعاه عليه، أو على تقدير صدق المدعي ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ ﴾ الشركاء الذين خلطوا أموالهم ﴿ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ أي ليتعدى غير مراع لحق الصحبة والشركة ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ منهم فإنهم يتحامون عن البغي والعدوان ﴿ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ﴾ أي وهم قليل، و«ما» مزيدة للإبهام والتعجب من قلّتهم ﴿ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ ﴾ الظن مستعار للعلم لما بينهما من المشابهة الظاهرة، أي فعلم عليه السلام أنه تعالى ابتلاه وامتحنه بتلك الحكومة هل يتنبه بها وقيل لما قضى بينهما نظر أحدهما إلى صاحبه فضحك، ثم صعدا إلى السماء فعلم الأمر ﴿ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ ﴾ إثر ما علم أن ما صدر عنه خطأ ﴿ وَخَرَّ رَاكِعًا ﴾ أي ساجداً على تسمية السجود ركوعاً، أو خرَّ للسجود راكعاً أي مصلياً ﴿ وَأَنَابَ ﴾ رجع إلى الله بالتوبة.

«فصل»

وفي هذه القصة ثلاثة أقوال:

القول الأول: وحاصل كلامهم أن داود عشق امرأة أوريا، فاحتال حتى قتل زوجها ثم تزوج بها، فأرسل الله إليه مَلَكيْن في صورة المتخاصمين، في واقعة شبيهة بواقعته، وعرضا تلك الواقعة عليه، فحكم داود بحكم لزم منه اعترافه بكونه مذنباً، ثم تنبَّه لذلك، فاشتغل بالتوبة!! والذي أدين الله به وأذهب إليه، أن ذلك باطل، ويدل عليه وجوه:

الأول: أن هذه الحكاية لو نُسبت إلى أفسق الناس لاستنكف منها،

والرجل الخبيث الذي يقرر تلك القصة، لو نسب إلى مثل هذا العمل لبالغ في تنزيه نفسه، وربما يلعن من نسبه إليها، وإذا كان الأمر كذلك، فكيف يليق بالعاقل نسبة هذا الإفك، بمن خصَّصه الله تعالى بنبوته، وائتمنه على وحيه، وشرَّفه على كثير من خلقه، وأمر أفضل خلقه محمداً ﷺ، بأن يقتدي به في مكارم الأخلاق.

الثاني: أن الله تعالى وصف داود عليه السلام بالصفات العشرة المذكورة قبل القصة ووصفه بصفات كثيرة بعدها وكل واحدة من هذه الصفات دالة على براءة ساحته عليه السلام عن تلك الأكاذيب.

والثالث: أنه لما كانت مقدمة الآية دالة على مدح داود وتعظيمه، ومؤخرتها أيضاً دالة على ذلك، فلو كانت الواسطة دالة على القبائح والمعايب، لجرى مجرى أن يقال: فلانٌ عالي الدرجة في طاعة الله، يقتل ويزني، وقد جعله الله خليفةً في أرضه، وكما أن هذا الكلام مما لا يليق بالعاقل، فكذا ههنا.

والرابع: أن داود عليه السلام قال: ﴿وإن كثيراً من الخلطاء ليبغي بعضهم على بعض إلاَّ الذين آمنوا﴾ استثنى الذين آمنوا عن البغي، فلو قلنا: إنه كان موصوفاً بالبغي، لزم أن يقال: إنه حكم بعدم الإيمان على نفسه، وذلك باطل.

الخامس: لو فعل ذلك لكان ظالماً فكان يدخل تحت قوله تعالى: ﴿أَلاَ لعنةُ اللهِ عَلَى الظالمين﴾ فثبت بهذه الوجوه أن القصة التي ذكروها فاسدة، باطلة، فإن قال قائل: إن بعض المحدثين والمفسرين ذكروا هذه القصة، فكيف الحال فيها؟ **الجواب**: أنه لما وقع التعارض بين الدلائل القاطعة، وبين خبر الآحاد، كان الرجوع إلى الدلائل أولى، وأيضاً الأصل براءة الذمة، وأيضاً إذا تعارض دليل التحليل والتحريم، كان جانب التحريم أولى، وفي نوع هذه الواقعة لا يقول الله تعالى لنا لِمَ لَمْ تَسْعوا

في تشهير هذه الواقعة، وأما بتقدير كونها باطلة، فإن علينا في ذكرها أعظم العقاب.

القول الثاني: في كيفية هذه القصة فيه وجهان:

الأول: أن هذه المرأة خطبها أوريا فأجابوه، ثم خطبها داود فآثره أهلها، فكان خطؤه أنْ خطب على خطبة أخيه المؤمن، مع كثرة نسائه، ويدل على صحة هذا الوجه قوله: ﴿وَعَزَّنِي فِي الخِطابِ﴾ فدلَّ هذا أنه كان بينهما في الخِطْبة.

الوجه الثاني: أنه كان أهل زمان داود عليه السلام، يسأل بعضهم بعضاً أن يطلِّق امرأتَه حتى يتزوجها، وكانت عادتهم في هذا معروفة، كما أن الأنصار كانوا يواسون المهاجرين بهذا المعنى، فطلب داود من أوريا النزول عنها، فاستحيا أن يرده ففعل، وهي أم سليمان، فقيل له: هذا وإن كان جائزاً في ظاهر الشريعة، إلا أنه لا يليق بك، فهذان الوجهان لو حملنا هذه القصة على واحد منهما، لم يلزم في حق داود عليه السلام إلا ترك الأفضل.

القول الثالث: وهو أن نقول: روي أن جماعةً من الأعداء طمعوا في أن يقتلوا نبي الله داود، وكان له يوم يشتغل بطاعة ربه، فانتهزوا الفرصة وتسوروا المحراب، فلما دخلوا عليه وجدوا عنده أقواماً، فخافوا فوضعوا كذباً فقالوا خصمان بغىٰ... إلخ.

وليس في القرآن ما يمكن أن يُحتج به في إلحاق الذنب بداود إلا ألفاظ أربعة ـ ﴿وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ﴾ ٢ ـ ﴿فَٱستَغفَرَ رَبَّهُ﴾ ٣ ـ ﴿وَأَنَابَ﴾ ٤ ـ ﴿فَغَفَرنَا لَهُ﴾ نقول: وهذه الألفاظ لا تدل على ما ذكروه إنهم لما دخلوا عليه لطلب قتله وعلم داود عليه السلام ذلك دعاه الغضب إلى أن يشتغل بالانتقام منهم إلا أنه مال إلى الصفح طلباً لمرضاة الله، وكانت هذه الواقعة فتنة لأنها جارية مجرى الابتلاء، ثم استغفر ربَّه ممَّا همَّ به من

الانتقام، وتاب، فغفر له، فكان هذا هو المراد من قوله: ﴿وَظَنَّ دَاوودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ﴾ الخ إذا حملنا هذه الآيات على هذا الوجه لا يلزم إسناد الذنوب إلى داود عليه السلام، وأما إذا قلنا: الخصمان كانا مَلَكَيْن وما كان بينهما مخاصمة، وما بغى أحدهما على الآخر، كان قولهما خصمان بغى الخ كذباً فهذه الرواية لا تتم إلا بشيئين: ١ ـ إسناد الكذب إلى الملائكة، ٢ ـ وإسناد القبائح إلى رجل كبير من الأنبياء، فكان قولنا أولى، والله أعلم بأسرار كلامه[1].

﴿ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ ﴿٢٥﴾ ﴾.

﴿ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ ۖ ﴾ أي ما استغفر منه ﴿ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ ﴾ أي لقربة وكرامةً بعد المغفرة ﴿ وَحُسْنَ مَآبٍ ﴾ أي حسن مرجع في الجنة، ومثلُ هذه الخاتمة، إنما تحسن في حق من صدر منه عملٌ كثير في الخدمة والطاعة، وتحمّل أنواع الشدائد في الانقياد، أما إذا كان المذكور هو الإقدام على الجرم والذنب، فإن مثل هذه الخاتمة لا تليق به، قال مالك ابن دينار: إذا كان يوم القيامة، أُتيَ بمنبر رفيع ويوضع في الجنة، ويقال: يا داودُ مجِّدني بذلك الصوت الحسن الذي كنتَ تمجدني به في الدنيا.

---

(١) ما نقله بعض المفسرين من الأخبار الإسرائيلية، كلها أقوال باطلة واهية، لا يصح نسبتها إلى نبي كريم كداود عليه السلام، وخلاصتها أنه رأى زوجة أحد قواده، فأحبها وعشقها، وأراد أن يتخلص منه ليتزوج بها، فأرسله في إحدى المعارك فلما قتل خطبها وتزوجها، فهذه فرية ما فيها مرية، وكما نقل المؤلف عن الإمام الفخر الرازي بطلان هذه الرواية من عدة وجوه، وهذا هو الذي ندين الله عزَّ وجلَّ به أن القصة كلها باطلة، وقد حققنا ذلك في كتابنا صفوة التفاسير ٣/ ٥٤ ونقلنا عن علي رضي الله عنه قوله: «من حدَّث بحديث داود على ما يرويه القُصَّاصُ ـ يعني أهل القصص والأخبار ـ جلدته مائة وستين جلدة، وهو حد الفرية على الأنبياء» وارجع إلى تفسير ابن كثير، والفخر الرازي، فقد أجادا في هذا الموضوع وأفادا.

﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ ﴾ .

﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي قلنا له: يا داود إنَّا قد استخلفناك على الملك فيها، والحكم فيما بين أهلها، وفيه دليل على أن حاله بعد التوبة، كما كانت قبلها، لم تتغير قط، وهذا من أقوى الدلائل على فساد القول الأول المشهور، لأن من كان ساعياً في سفك دم المسلم، وراغباً في انتزاع زوجته منه، فتفويضُ خلافة الأرض من جهة الله تعالى إليه بعيدٌ جداً ﴿ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ﴾ بحكم الله تعالى، فإن الخلافة مقتضية له حتماً ﴿ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ ﴾ أي هوى النفس في الحكومات، وغيرها من أمور الدين والدنيا، وهو يؤيد أن خطأه عليه السلام كان بالمبادرة إلى تصديق المدَّعي، وتظليم الآخر قبل مسألته ﴿ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ﴾ فيكون الهوى أو اتباعه سبباً لضلالك، عن دلائله التي نصبها على الحق، تكويناً وتشريعاً ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ تعليل لما قبله، أي إن الذين ينحرفون عن دين الله وشرعه المستقيم ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ ﴾ أي بسبب نسيانهم ﴿ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴾ أي لهم عذاب شديد يوم الحساب، بسبب تكذيبهم به، وعدم اعتقادهم بلقاء الله، وقيل: المعنى: بما تركوا الإيمان بيوم الحساب، أو عدم العدل في القضاء. روي عن بعض خلفاء بني مروان أنه قال لبعض أكابر العلماء وهو ـ أبو زُرعة ـ هل سمعتَ ما بَلغنا أن الخليفة لا يجري عليه القلم، ولا يُكتب عليه معصية؟ فقال له: يا أمير المؤمنين: الخلفاءُ أفضل أم الأنبياء؟ إن الله جمع لداود بين الخلافة والنبوة، ثم توعَّده في كتابه فقال: ﴿يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلَّك عن سبيل الله. . .﴾ الآية، فكانت موعظة بليغة[1].

---

(١) ذكرها الحافظ ابن كثير في تفسيره ٣/ ٢٠١ من المختصر.

﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ ﴾ .

﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ﴾ أي وما خلقناهما وما بينهما من المخلوقات، على هذا النظام البديع، الذي تحار في فهمه العقول، خلقاً باطلاً، أي خالياً عن الغاية والحكمة، بل منطوياً على الحِكَم البالغة ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ إشارة إلى ما نُفي، أي خلقها باطلاً ﴿ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ أي مظنونهم فإن جحودهم للبعث والجزاء، الذي يدور عليه فلك التكوين، قولٌ منهم ببطلان الحكمة، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ بسبب هذا الظن الباطل ﴿ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ أي فويل لهم من عذاب النار المترتب على ظنهم وكفرهم.

﴿ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ ﴾ .

﴿ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ﴾ أم منقطعة وما فيها من معنى «بل» لإنكار التسوية بين الفريقين على أبلغ وجه ﴿ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي بل أنجعل المؤمنين المصلحين، كالكفرة المفسدين في أقطار الأرض؟ ﴿ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴾ إضراب وانتقال بلزوم ما هو الأظهر منه استحالة، أي أم نجعل الأبرار الأخيار، كالأشرار الفجار؟ هذا لا يمكن في عدل الله وحكمته؟

﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾ ﴾ .

﴿ كِتَٰبٌ ﴾ أي هذا كتاب يعني القرآن ﴿ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ ﴾ كثير المنافع والخيرات ﴿ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ أي أنزلناه ليتفكروا في آياته المعجزة العجيبة

فيقفوا على ما فيها ويعملوا بها ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي وليتعظ به ذوو العقول السليمة.

﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ﴾ أي نعم سليمان كما ينبىء عنه تأخره عن داود، مع كونه مفعولاً صريحاً لوهبنا ولأن قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ تعليل للمدح أي رجَّاع إلى الله بالتوبة والإنابة.

﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾﴾.

﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ﴾ أي اذكر حين عرضت عليه خيله ﴿بِٱلْعَشِىِّ﴾ هو من الظهر إلى آخر النهار ﴿ٱلصَّٰفِنَٰتُ﴾ الصافن الخيل الذي يقوم على ثلاث قوائم، وأقام الأخرى على طرف حافر، وهي من الصفات المحمودة في الخيل، ولا يكاد يتفق إلاَّ في العرابي الخالص ﴿ٱلْجِيَادُ﴾ صفة أخرى، وهو الذي يسرع في جريه، وذكر تعالى الصفون، والجودة لبيان جمعها بين الوصفين المحمودين، واقفة، وجارية، أي إذا وقفت كانت ساكنة مطمئنة في مواقفها، وإذا جرت كانت سراعاً وخفافاً في جريها، روي أنه عليه السلام غزا وأصاب ألف فرس فقعد يوماً بعدما صلَّى الظهر على كرسيه، فاستعرضها فلم تزل تُعرض عليه حتى غربت الشمس، وغفل عن وردٍ كان له من الذكر، فاغتَّم لما فاته، فاستردها فعقرها تقرباً لله تعالى، وقيل: لمَّا عقرها أبدله الله تعالى خيراً منها، وهي الريح تجري بأمره إلى حيث شاء.

﴿فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى﴾ قاله عند غروب الشمس، اعترافاً بما صدر عنه من الاشتغال بها عن ذكر الله، وندماً عليه، وتمهيداً

لما يعقبه من الأمر بردِّها وعقرها، والتأكيد للدلالة على ندمه عن صميم القلب ومعنى ﴿أَحْبَبْتُ﴾ آثرتُ كقوله تعالى: ﴿فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ والخير المال الكثير، والمراد به الخيل التي شغلته ويحتمل أنه سماها خيراً لتعلق الخير بها وقال ﷺ: «الخير معقود بنواصي الخيل إلى يوم القيامة»[1] ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ أي غربت الشمس تشبيهاً لغروبها في مغربها بتواري المخبَّأة بحجابها، وإضمارها من غير ذكرٍ، لدلالة العشيِّ عليها، وقيل: الضمير للصافنات أي حتى توارت الخيل بحجاب الليل أي بظلامه.

﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ﴾ من مقالة سليمان عليه السلام ﴿فَطَفِقَ مَسْحًا﴾ الفاء فصيحة مفصحة عن جملة قد حذفت إيذاناً لسرعة الامتثال بالأمر، أي فردوها عليه فأخذ يمسح السيف مسحاً ﴿بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾ أي بسوقها وأعناقها يقطعها، ويتصدَّق بلحومها على الفقراء، وإنما فعل ذلك كفارة لها، وكانت الخيل مأكولة في شريعته فلم يكن إتلافاً، وقيل: مسحها بيده استحساناً لها، وإعجاباً بها، وحبسها في سبيل الله. قال الأكثرون: إنه عليه السلام لما فاتته صلاة العصر، بسبب اشتغاله بالنظر إلى تلك الخيل، استردَّها وعقر سوقها وأعناقها، تقرباً إلى الله تعالى، وعندي أن هذا بعيدٌ، ويدل عليه وجوه:

الأول: أنه لو كان معنى مسح السوق قطعها لكان معنى ﴿وَامْسَحُوا بِرُؤُوسِكُمْ﴾ قطعها.

الثاني: القائلون بهذا القول جمعوا على سليمان عليه السلام أنواعاً من الأفعال المذمومة ١ ـ ترك الصلاة، ٢ ـ الاشتغال بحب الدنيا، ٣ ـ أنه

---

(١) رواه أحمد في المسند.

خاطب رب العالمين بقوله: ﴿رُدُّوهَا عليَّ﴾ وهذه الكلمة لا يذكرها الرجل إلا مع الخادم الخسيس، ٤ ـ عقر الخيل في سوقها وهو منهي عنه، ٥ ـ إنه بعد الإتيان بهذه الذنوب لم يشتغل بالتوبة، فهذه أنواع من الذنوب نسبوها إلى سليمان عليه السلام، مع أن لفظ القرآن لم يدلَّ على شيء منها، بل ينادي على هذه الأقوال بالرد والإبطال، والتفسير المطابقُ لألفاظ القرآن أن نقول: إن رباط الخيل كان مندوباً إليه في دينهم، كما أنه كذلك في دين الإسلام، ثم إنه عليه السلام لمَّا احتاج إلى الغزو أمر بإحضار الخيل، وذكر إني لا أحبها لأجل الدنيا، إنما أحبها لأمر الله تعالى، ثم أمر بإعدائها وتسييرها حتى توارت بالحجاب، أي غابت عن بصره، ثم أمر الرائضين بأن يردُّوا تلك الخيل إليه، فلما عادت إليه، طفق يمسح سوقها وأعناقها، والغرض من ذلك إمَّا تشريفاً لها وإبانة لعزتها، لكونها من أعظم الأعوان في دفع العدو، وإما أراد أن يُظهر أنه في ضبط السياسة والملك، يتصنع إلى حيث يباشر أكثر الأمور بنفسه.

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ ﴾.

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴾ أظهرُ ما قيل في فتنته عليه السلام ما روي مرفوعاً، أنه قال: «لأطوفنَّ الليلة على سبعين امرأة، تأتي كلُّ واحدةٍ بفارس يجاهد في سبيل الله تعالى، ولم يقل: إن شاء الله تعالى، فطاف عليهنَّ، فلم تحمل إلا امرأة واحدة بشقِّ رجل، والذي نفسي بيده، لو قال إن شاء الله لجاهدوا في سبيل الله فرساناً أجمعون»[1] ﴿ثُمَّ أَنَابَ﴾ رجع إلى الله تعالى.

---

(١) أخرجه البخاري ولم يذكر أنه تفسير للآية الكريمة، فيحتمل أنه تفسير، ويحتمل أنه قصة.

﴿ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ ﴾ .

﴿ قَالَ ﴾ بدل من أناب وتفسير له ﴿ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى ﴾ أي ما صدر عني من الزلة ﴿ وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ﴾ لا يتسهل لغيري، يكون مختصاً بي ليكون معجزة دالة على نبوتي ﴿ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾ المعطي ما تشاء لمن تشاء، تعليل للدعاء بالمغفرة والهبة معاً.

﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ ﴾ .

﴿ فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ ﴾ أي فذللناها لطاعته إجابة لدعوته ﴿ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ ﴾ أي بأمر سليمان وهو بيان لتسخيرها له ﴿ رُخَآءً ﴾ أي لينة طيبة، لا تزعج ولا تخالف إرادته ﴿ حَيْثُ أَصَابَ ﴾ أي حيث قصد وأراد.

﴿ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ ﴾ .

﴿ وَٱلشَّيَٰطِينَ ﴾ أي وسخرنا له الشياطين ﴿ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴾ أي منهم من يبني له القصور الشاهقة، ومنهم من يغوص في البحر لاستخراج الدرر والجواهر.

﴿ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ ﴾ .

﴿ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴾ أي وآخرين من الشياطين - وهم المردة - مربوطون بالقيود والسلاسل، لكفرهم وتمردهم عن طاعة سليمان، كأنه عليه السلام، فصَّل الشياطين إلى عَمَلة، وإلى مَرَدة قَرَن بعضهم مع بعض في السلاسل، لكفِّهم عن الشر والفساد، وإلى غواصين يغوصون البحار، لاستخراج الياقوت والمرجان.

﴿ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴿٣٩﴾ ﴾ .

﴿ هَٰذَا ﴾ أي الأمر الذي أعطيناك من المُلْك، والبسطة، والتسلط ﴿ عَطَآؤُنَا ﴾ الخاصُّ بك ﴿ فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ ﴾ أي فأعط من شئت، وامنع من شئت ﴿ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴾ أي لا حساب عليك في ذلك، لأنك مطلق اليد في التصرف بهذا الملك الواسع.

﴿ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ﴿٤٠﴾ ﴾ .

﴿ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ﴾ أي وإن له عندنا لمكانة رفيعة، ومنزلة سامية، مع ما له من الملك العظيم الواسع في الدنيا.

﴿ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ﴾ .

﴿ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ ﴾ هو ابن عيص بن إسحق عليه السلام ﴿ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ ﴾ أي دعا ربه وتضرع إليه ﴿ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ ﴾ بتعب ومشقة ﴿ وَعَذَابٍ ﴾ أي ألمٍ شديد، يريد مرضه، وما كان يقاسيه من فنون الشدائد وهو المراد بالضر في قوله تعالى: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ﴾ فقد حصل عنده نوعان من المكروه: الغمُّ الشديد بسبب زوال الخيرات، والألم في جسمه، ولذا قيل ﴿بِنُصبٍ وَعَذَابٍ﴾ والإسناد إلى الشيطان مراعاة للأدب، وإن كانت الأشياء كلها، خيرُها وشرها من الله تعالى، ولأن الشيطان يغريه على الكراهة والجزع، فالتجأ إليه تعالى في أن يكفيه ذلك، بكشف البلاء، ومراعاة للأدب، وليس هذا تمام دعائه عليه السلام، بل من جملته ﴿وأنتَ أرحمُ الرَّاحِمِينَ﴾ فاكتفى ههنا عن ذكره بما في سورة الأنبياء، ولما انقضت مدة ابتلائه قلنا له بواسطة جبريل:

﴿ ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ ﴿٤٢﴾ ﴾ .

﴿ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ﴾ أي اضرب بها الأرض، فضرب بها فنبعت عين فاغتسل منها، وعين باردة فشرب منها، والرَّكضُ: الدفعُ القويُّ بالرِّجْلِ ﴿ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴾ تغتسل به، وتشرب منه، فيبرأ ظاهرك وباطنك.

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾ ﴾.

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ ﴾ أي فاغتسل وشرب ﴿ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ ﴾ كما في سورة الأنبياء ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ ﴾ أي بجمعهم بعد تفرقهم ﴿ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ ﴾ فكان له من الأولاد ضعف ما كان له قبل ﴿ رَحْمَةً مِّنَّا ﴾ أي لرحمة عظيمة عليه من قبلنا ﴿ وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ ولتذكيرهم ليصبروا على الشدائد كما صبر، ويلجؤوا إلى الله تعالى فيما يحيق بهم كما لجأ، ويعلموا أن عاقبة الصبر الفَرَجُ.

﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾ ﴾.

﴿ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا ﴾ أي وقلنا له: خذ بيدك حزمة من قضبان خفيفة فيها مائة عودٍ ﴿ فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ ﴾ أي لتبرَّ في يمينك، روي أن زوجته «رحمة بنت إفرائم بن يوسف» ذهبت لحاجةٍ فأبطأت عليه، فحلف إن برئَ ضربها مائة[1]، فحلَّل الله يمينه بذلك، ولقد شرع الله سبحانه هذه

(١) سبب حلفه أن زوجته كانت تخدمه في حالة مرضه، فلما اشتدَّ به البلاء، وطالت المدة، وسوس إليها الشيطان إلى متى تصبرين، فجاءت إلى أيوب وفي نفسها الضجرُ، فقالت: إلى متى نصبر على هذا البلاء؟ ادع الله أن يشفيك، فغضب من هذا الكلام، وحلف إن شفاه الله ليضربنها مائة سوط، فأراد الله أن يعصم نبيه أيوب عليه السلام من الذنبين الظلم، والحنث، وأن لا يضيع أجر إحسان المرأة مع زوجها، وأن لا يكافئها بالخير شراً، وتبقى ببركتها هذه الرخصة في الأمم إلى يوم القيامة.

الرخصة رحمةً عليه وعليها، لحسن خدمتها إياه، ورضاه عنها، وهي رخصة باقية في الحدود عند أبي حنيفة والشافعي، وقال مالك وأحمد: لا يبرُّ به ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا﴾ فيما أصابه في النفس، والأهل، والمال، وليس في شكواه إخلال بذلك، فإنه كالتمني للعافية، وكمن اشتكى من عدوه إلى حبيبه، والشكاية من العدوِّ إلى الحبيب لا تقدح في الصبر ﴿نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ﴾ أي أيوب ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ تعليل لمدحه، أي رجَّاع إلى الله تعالى بالتوبة والإنابة.

﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ﴾ أي أُولي القوة في الطاعة، والبصيرة في الدين.

﴿إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ﴾ أي جعلناهم خالصين لنا، بخصلةٍ عظيمة الشأن، كما ينبىء عنه التنكير التفخيمي ﴿ذِكْرَى ٱلدَّارِ﴾ بيان للخالصة بعد إبهامها، أي تذكرهم للدار الآخرة دائماً.

قال مجاهد: «جعلناهم يعملون للآخرة، ليس لهم همٌّ غيرها»، وذلك لأن مطمح أنظارهم جوار الله عزَّ وجلَّ، والفوز بلقائه، ولا يتسنى ذلك إلا في الآخرة، وإطلاق الدار للإشعار بأنها هي الدار في الحقيقة، وإنما الدنيا معبر.

﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾ أي لمن المختارين من أمثالهم.

﴿وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿ وَٱذْكُرْ إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ ﴾ أي كلهم ﴿ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴾ المشهورين بالخيريَّة والفضل، فاقتد بهم في الصبر، وتحمل الأذى من الأعداء.

﴿ هَٰذَا ذِكْرٌ ۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٩﴾ ﴾.

﴿ هَٰذَا ﴾ إشارة إلى ما تقدم من الآيات، الناطقة بمحاسنهم ﴿ ذِكْرٌ ۚ ﴾ أي شرفٌ لهم، وذكرٌ جميل، يُذكرون به أبداً وعن ابن عباس: هذا ذكر من مضى من الأنبياء عليهم السلام ﴿ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴾ أي حسن مرجع ومنقلب، يرجعون إليه في الآخرة، والمراد بالمتقين الجنسُ، وهم داخلون في الحكم، أو المذكورون من الأنبياء، عبَّر عنهم بذلك، مدحاً لهم بالتقوى، التي هي الغاية من الكمال.

﴿ جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾ ﴾.

﴿ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ﴾ أي هي جنات إقامة في دار الخلد والنعيم، وهو بيان لحسن مآب ﴿ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴾ أي قد فُتحت لهم أبوابها انتظاراً لقدومهم، فيدخلونها محفوفين بالملائكة، على أجمل هيئة، وأحسن حال، كما قال سبحانه: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عليكُمْ طبتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾[1] سورة الزمر.

﴿ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ ﴾.

﴿ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴾ الاقتصار على دعاء

(١) سورة الزمر، آية: ٧٣.

الفاكهة، للإيذان بأن مطاعمهم لمحض التفكه والتلذذ، دون التغذي، فإنه لا جوع ولا عطش في الجنة.

﴿ ۞ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ ﴾.

﴿ ۞ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ ﴾ أي قصرن أنظارهنَّ على أزواجهنَّ، لا ينظرن إلى غيرهم ﴿ أَتْرَابٌ ﴾ أي هنَّ في سنٍّ واحد، سنُّ الصبا والشباب، ليس فيهن عجائز، بنات ثلاث وثلاثين، كما هو سن أزواجهن.

﴿ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ ﴾.

﴿ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴾ أي يقال لهم: هذا جزاؤكم الذي وعدتم به في الدنيا ليوم الجزاء والحساب.

﴿ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾ ﴾.

﴿ إِنَّ هَٰذَا ﴾ ما ذكر من النعم والكرامات ﴿ لَرِزْقُنَا ﴾ أعطيناكموه ﴿ مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴾ أي ليس له انقطاع أبداً بل هو دائم، كلما أُخذ منه شيء، عاد مثله في مكانه.

﴿ هَٰذَا ۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴿٥٥﴾ ﴾.

﴿ هَٰذَا ۚ ﴾ أي الأمر هذا ﴿ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٍ ﴾ شروع في بيان حال الأشقياء المجرمين، بعد بيان حال السعداء المتقين.

﴿ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٥٦﴾ ﴾.

﴿ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا ﴾ أي يدخلونها ويصلون سعيرها ﴿ فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾ أي

بئست جهنم فراشاً ومهاداً لهم يفترشونه، شبَّه ما تحتهم من النار بالفراش، فهو فراشٌ لكنْ لا راحة فيه، لأنه من نصف جهنم.

﴿ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ ﴾.

﴿ هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ ﴾ أي ليذوقوا هذا، إنه العذاب الأليم فليذوقوه، وليهنأوا به ﴿ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴾ إنه الحميم الذي يقطع الأمعاء بحرارته، والصديد الذي يسيل من جلود أهل النار.

﴿ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾ ﴾.

﴿ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ ﴾ أي هذا العذاب الذي أُعدَّ لهم هو الحميم، أي الماء الحار الذي انتهى إلى درجة الغليان، والغسَّاق: وهو ما يسيل من جلود أهل النار من الصديد والدم، ومذاق آخر من مثل هذا المذاق، في الشدة والكدر ﴿ أَزْوَٰجٌ ﴾ أي أجناس، كالزمهرير، والزَّقُوم، والسَّمُوم.

﴿ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ ۚ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾ ﴾.

﴿ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ ۖ ﴾ حكاية ما يقال من جهة الخزنة للرؤساء الطاغين، إذا دخلوا النار، واقتحمها معهم فوج، كانوا يتَّبعونهم في الكفر والضلالة، والاقتحامُ: الدخول في الشيء بشدَّة ﴿ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ ۚ ﴾ هو من تمام كلام الخزنة، بطريق الدعاء على الفوج، أي لا رَحُبتْ بهم الدار ﴿ إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ ﴾ تعليل لاستحقاقهم الدعاء، وقيل: هذا من كلام الرؤساء الطغاة، للأتباع الأشقياء، إذا قالت لهم الملائكة، هذا فوج من أتباعكم، معكم في نار جهنم، يدخلونها كما دخلتموها، قال الرؤساء: لا أهلاً بهم ولا مرحباً!! فيقول الأتباع:

﴿ قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ ۖ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ ﴾ .

﴿ قَالُوا۟ ﴾ أي الأتباع عند سماعهم ما قيل ﴿ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ ﴾ أي بل أنتم أحق بالخزي واللعنة ﴿ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا ﴾ أي أنتم قدمتم لنا هذا العذاب، وكنتم سبباً فيه ﴿ فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴾ أي فبئس المنزل والمستقر لنا ولكم نار جهنم.

﴿ قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾ ﴾ .

﴿ قَالُوا۟ ﴾ أي الأتباع أيضاً معرضين عنهم إلى الله تعالى ﴿ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ﴾ كقولهم: ﴿ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴾[1] أي عذاباً مضاعفاً، بأن يزيد عليه مثله.

﴿ وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ ﴾ .

﴿ وَقَالُوا۟ ﴾ أي الرؤساء الكفرة ﴿ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴾؟ يعنون فقراء المسلمين، الذين كانوا يسترذلونهم، ويسخرون منهم.

﴿ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٦٣﴾ ﴾ .

﴿ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا ﴾ صفة أخرى لرجالاً ﴿ أَمْ زَاغَتْ ﴾ أي مالت ﴿ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾ فلا نراهم أي ما لنا لا نراهم في النار؟ كأنهم ليسوا فيها، أم هل أزاغت عنهم أبصارنا فلا نراهم؟

---

(١) سورة الأعراف، آية: ٣٨.

﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾ ﴾ .

﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ ﴾ الذي حُكي من أحوالهم ﴿ لَحَقٌّ ﴾ لا بد من وقوعه البتَّة وهو قوله تعالى ﴿ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴾ أي في النار، وإنما سماه تخاصماً، لأن قول القادة للأتباع ﴿لا مرحباً بهم﴾ وقول الأتباع: ﴿بل أنتم لا مرحباً بكم﴾ باب المخاصمة، لأن فيه تقبيحاً، وتشنيعاً، وتلاعناً، ودعاء بعضهم على بعض.

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ ﴾ .

﴿ قُلْ ﴾ أمر لرسول الله ﷺ أن يقول للمشركين ﴿ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ ﴾ من جهته تعالى، أنذركم عذابه ﴿ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ ﴾ في الوجود ﴿ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ﴾ الذي لا يقبل الشركة أصلاً ﴿ ٱلْقَهَّارُ ﴾ لكل شيء سواه، وكونُه تعالى قهاراً، يدلُّ على وحدانيته.

﴿ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّارُ ﴿٦٦﴾ ﴾ .

﴿ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ من المخلوقات، فكيف يتوهم أن يكون له شريك منها؟ ﴿ ٱلْعَزِيزُ ﴾ الذي لا يُغلب في أمرٍ من أموره ﴿ ٱلْغَفَّارُ ﴾ المبالغ في المغفرة، وفي هذه النعوت الوعدُ والوعيدُ.

﴿ قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ ﴾ .

﴿ قُلْ ﴾ تكرير الأمر، للإيذان بأنه أمر جليل، له شأن خطير ﴿ هُوَ ﴾ أي ما أنبأتكم به من أني منذر، وأنه تعالى واحد أحد، متصف بما ذُكر، هو خبرٌ هام، ونبأٌ عظيم الشأن. والأظهر أن الضمير يعود على القرآن،

كما يشهد به آخر السورة، وهو قول ابن عباس ومجاهد وقتادة ﴿نَبَؤٌا عَظِيمٌ﴾ أي هذا القرآن الذي جئتكم به، هو نبأ عظيم وارد من جهته تعالى.

﴿أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾﴾.

﴿أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ استئنافٌ ناعٍ عليهم سوء صنيعهم، ببيان أنهم لا يقدرونه قدره الجليل، حيث يعرضون عنه مع عظمته.

﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾﴾.

﴿مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ﴾ أي من أين لي العلم باختلاف الملائكة في شأن خلق آدم، لولا الوحي المنزل عليَّ؟ وفي ذلك حجة بينة، دالة على أن ذلك النبأ، بطريق الوحي من عند الله تعالى، لأنه ﷺ لم يسلك طريق العلم، ولا قراءة الكتب ﴿إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ أي ما كان لي فيما سبق علم بحال الملأ الأعلى، وقت اختصامهم، فإن قلت: كيف يجوز أن يقال: إن الملائكة اختصموا مع الله تعالى بسبب قولهم: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾؟ قلتُ: لا شكَّ أنه جرى هناك سؤال وجواب، وذلك يشبه المخاصمة في الحوار، وهو علة لجواز المجاز فعبَّر عن الحوار بالخصام.

﴿إِن يُوحَىٰ إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾﴾.

﴿إِن يُوحَىٰ﴾ أي ما يُوحى ﴿إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي ما يُوحى إليَّ ما يُوحى من الأمور الغيبية، إلا لأنما أنا نذير مبين من جهته تعالى، أرسلني الله إليكم لأنذركم عذابه.

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾﴾.

﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴾ أي اذكر حين أخبر ربك الملائكة، بأني سأخلق إنساناً من تراب مبلول، وهو الطينُ، والمراد به أبونا آدم عليه السلام.

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ ﴾.

﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ أي اسجدوا له سجود تحية وتكريم.

﴿ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾.

﴿ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ ﴾ أي تعظَّم ﴿ وَكَانَ ﴾ أي صار بسبب استكباره وعصيانه لأمر الله ﴿ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ أي أصبح كافراً ملعوناً، مطروداً من رحمة الله عزَّ وجلَّ.

﴿ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾.

﴿ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ﴾ أي لما خلقته بيديَّ فكرَّمْتُهُ، ونفخت فيه الروح بنفسي من غير توسط الأب والأم؟ ﴿ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴾؟ أي المستحقين للتفوق على آدم بمآثر خاصة، تستحق به التكريم؟.

﴿ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ ﴾.

﴿ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴾ فأنا أشرف منه وأفضل.

﴿ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ ﴾.

﴿ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا ﴾ أي اخرج من السماوات ﴿ فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴾ أي مطرود من كل الخير والكرامة.

﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِى إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ ﴾.

﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ * قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِى إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ * قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ * إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴾ أي إلى وقت النفخة الأولى، وهو الوقت الذي قدَّره الله لفناء الخلائق.

﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾.

﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ ﴾ أي فبسلطانك وجلالك، أقسمُ لك يا رب ﴿ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ وهم المؤمنون الصادقون، الذين اصطفيتهم لنفسك، فلا قدرة لي عليهم!!.

﴿ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ ﴾.

﴿ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴾ أي لا أقول إلا الحقَّ، فالحقُّ قَسَمي.

﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾.

﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ أي لأملأنَّ جهنم من

المتبوعين والأتباع أجمعين، وهذا هو المراد بقوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ حَقَّ القَوْلُ مِنِّي لأَمْلأَنَّ جَهَنَّم مِنَ الجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾.

﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾.

﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ﴾ أي على تبليغ ما أوحي إليَّ من أجرٍ دنيوي ﴿ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ أي المتصنّعين بما ليسوا من أهله، حتى أنتحل النبوة، وأتقوَّل القرآن، وكلُّ من قال شيئاً من تلقاء نفسه فقد تكلَّف له، روي عن مسروق قال: دخلنا على ابن مسعود رضي الله عنه فقال: أيها الناس من عَلِمَ شيئاً فليقل به، ومن لم يعلم فليقل: الله أعلم؟ فإن من العلم أن يقول لما لا يعلم: اللهُ أعلم، قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْه مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ المُتَكَلِّفِينَ﴾[1] والغرض من الآية: أن هذا الدين الذي أدعوكم إليه، ليس يحتاج في معرفة صحته، إلى التكلفات الكثيرة، بل هو دينٌ يشهد صريح العقل بصحته، فإني أدعوكم إلى الإقرار بوجود الله تعالى، وتقديسه عن كل ما لا يليق به، منزهاً عن الشريك والأضداد، ومتصفاً بكمال الصفات، ثم أدعوكم إلى الإقرار بالبعث والنشور، فكل ذلك حقٌّ لا مرية فيه.

﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾.

﴿ إِنْ هُوَ ﴾ أي ما هو يعني القرآن ﴿ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ أي الإنس والجن وسائر الخلق.

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في تفسير سورة ص ٨/ ٥٤٧ باب ﴿وما أنا من المتكلفين﴾ وله تتمة.

﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍ ﴿٨٨﴾ ﴾ .

﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍ ﴾ أي ولتعلمن خبره وصدقه عن قريب عند ظهور الإسلام، وبعد الموت، والله تعالى أعلم بمراده، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة صٓ»

* * *

سُورَةُ الزُّمَرِ

مكية وهي خمس وسبعون آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝١﴾.

﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ﴾ خبر لمبتدأ محذوف، أي هذا القرآن العظيم تنزيل من الله جلَّ وعلاَ ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾ أي القاهر الذي لا يُغلب، ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾ أي الذي يفعل كل شيء بحكمة وتدبر، والتعرض لوصفي العزة، والحكمة، للإيذان بظهور أثرهما في الكتاب، على أساس الحِكَم الباهرة.

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢﴾.

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي متضمناً الحقَّ الذي لا ريب فيه، والصدق الذي لا يشوبه هزل أو باطل، والمراد بالكتاب هو القرآن، وإظهاره لتعظيمه ومزيد الاعتناء بشأنه ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ أي من شوائب الشرك والرياء. ولفظ «التنزيل» يشعر بأنه تعالى أنزله نجماً نجماً، على سبيل التدريج، ولفظ «الإنزال» يشعر بأنه تعالى أنزله دفعة واحدة، فكيف الجمع بينهما؟ والجواب: أن المعنى: إنَّا حكمنا حكماً كلياً جازماً،

بأن يوصل إليك هذا الكتاب، وهذا هو الإنزال، ثم أوصلناه إليك يا محمد نجماً نجماً على وفق المصالح، وهذا هو التنزيل.

﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾ ﴾.

﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ ﴾ الخ تحقيق لحقية ما ذكر من إخلاص الدين الذي هو عبارة عن التوحيد، وبطلان الشرك، أي ألا فانتبهوا، فإن الله لا يقبل إلا ما كان خالصاً لوجهه الكريم، لأنه المتفرد بالألوهية ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ﴾ أي المشركون ﴿ أَوْلِيَآءَ ﴾ كالملائكة، وعيسى، والأصنام، يقولون ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ أي والذين لم يخلصوا العبادة لله تعالى، بل شابوها بعبادة غيره، يقولون: ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله قربة، ويشفعوا لنا عنده ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ﴾ أي بين الخلائق ﴿ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ ﴾ من الدين الذي اختلفوا فيه، بالتوحيد والإشراك، وادعى كل منهم صحة ما انتحله، وحكمُه تعالى فيه إدخال المخلصين الجنة، والمشركين النار ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ﴾ أي لا يوفق للاهتداء إلى الحق ولكنه يخذله ﴿ مَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴾ أي راسخ في الكذب مبالغ في الكفر، فإنهما فاقدان للبصيرة.

﴿ لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٤﴾ ﴾.

﴿ لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴾ استئناف لتحقيق الحق، وإبطال كذبهم بأن الملائكة بنات الله، تعالى الله عن ذلك، أي لو أراد الله أن يختار لنفسه ولداً ﴿ لَّٱصْطَفَىٰ ﴾ أي لاتخذ ﴿ مِمَّا يَخْلُقُ ﴾ أي من جملة ما يخلقه ﴿ مَا يَشَآءُ ۚ ﴾ أن يتخذه، إذ لا موجود سواه، إلاَّ وهو مخلوق له، ومن البيِّن أنَّ

المخلوق لا يماثل خالقه، حتى يمكن اتخاذه ولداً ﴿سُبْحَانَهُ﴾ أي تنزه عن ذلك تنزهاً بليغاً ﴿هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ أي الواحد في ذاته، القاهر لعباده، فكيف يكون له ولد، والوحدانية تنافي المماثلة، والقهارية تنافي الحاجة إلى الذرية؟.

﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ﴿٥﴾﴾.

﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ تفصيل لبعض أفعاله تعالى الدالة على تفرده بما ذكر من الصفات الجليلة ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾ يغشى كل واحد منهما الآخر، كأنه يلفه عليه لف اللباس على اللابس، والتكويرُ: اللفُّ والليُّ ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ هو يوم القيامة ﴿أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾ أي الغالب القادر على كل شيء، والمبالغ في المغفرة، ولذلك لا يعاجل بالعقوبة، وقد اتفق علماء المعقول من المسلمين على كروية الأرض، وظواهر النصوص أدل على هذا، ويدل عليه تعقيب الليل النهار لأن الأرض تدور على محورها تحت الشمس، فيكون نصفها مضيئاً بنورها دائماً ونصفها الآخر مظلماً، وهذا معلوم بالقطع في هذا العصر[1].

﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾﴾.

(١) انظر كتابنا «حركة الأرض حقيقة علمية أثبتها القرآن» ففيه أدلة ساطعة على الموضوع.

﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ المراد بالنفس: نفسُ آدم عليه السلام ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ يعني حواء ففيه ثلاث آيات مترتبة: خلق آدم، وخلق حواء، ثم تشعيب الخلق منهما ﴿وَأَنزَلَ لَكُم﴾ أي قضى وأحدث لكم، بأسباب نازلة من السماء كالأمطار، وأشعة الشمس والكواكب ﴿مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ ذكراً وأنثى، هي: الإبلُ، والبقر، والضأنُ، والمعز ﴿يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ في أطوار مختلفة دالة على القدرة الباهرة ﴿خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ﴾ أي خلقا مدرجاً نطفة، ثم علقة، ثم مضغة، ثم إلى تمام الخلق ﴿فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ﴾ وهي ظلمة البطن، وظلمة الرحم، وظلمة المشيمة، أو ظلمة الصلب، والبطن، والرحم ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ أي ذلكم العظيم الشأن الذي عُدِّدت أفعاله ﴿ٱللَّهُ﴾ جل جلاله ﴿رَبُّكُمْ﴾ أي مربيكم فيما ذكر من الأطوار وفيما بعده ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾ على الإطلاق، في الدنيا والآخرة ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ أي فكيف تُصرفون عن عبادته تعالى، مع وفور موجباتها ودواعيها، إلى عبادة غيره من غير داع إليها.

﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾﴾.

﴿إِن تَكْفُرُوا۟﴾ به تعالى بعد مشاهدة ما ذكر من فنون نعمائه، ومعرفة شؤونه الموجبة للإيمان والشكر ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ أي فإن الله غني عن إيمانكم وشكركم، ولا يرضى منكم الكفر وهو قول السلف، قالوا: كفرُ الكافر غير مرضٍ لله تعالى، وإن كان بإرادته، والرضا: عبارة عن مدح الشيء، والثناء على فعله، والله تعالى لا يمدح الكفر، ولا يكون في ملكه إلا ما أراد، وقد بان الفرق، وعدم رضاه بكفر عباده، لأجل منفعتهم، ودفع مضرتهم، رحمة عليهم، لا لتضرره تعالى به ﴿وَإِن تَشْكُرُوا۟﴾ فتؤمنوا ﴿يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ أي يرضى الشكر لأجلكم، لأنه سبب

لفوزكم بسعادة الدارين، لا لانتفاعه تعالى به ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أي لا تحمل نفس حاملة للوزر، حمل نفس أخرى، وهذا بيان لعدم سراية كفر الكافر إلى غيره أصلاً ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ﴾ بالبعث بعد الموت ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي تعملونه في الدنيا، أي يجازيكم بذلك، ثواباً وعقاباً، وهذا تهديد للعاصي، وبشارة للمطيع ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي بمضمرات قلوبكم، فكيف بالأعمال الظاهرة؟.

﴿۞ وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوا إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ﴿٨﴾﴾.

﴿۞ وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ ضُرٌّ﴾ كربٌ وبلاء ﴿دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾ راجعاً إليه مما كان يدعوه في حالة الرخاء لعلمه، وهذا وصف للجنس بحال بعض أفراده كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِّنْهُ﴾ أي أعطاه نعمة عظيمة من جنابه تعالى ﴿نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوا إِلَيْهِ﴾ أي نسي الضر الذي كان يدعو الله إلى كشفه ﴿مِن قَبْلُ﴾ من قبل التخويل والعطاء ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ أي شركاء في العبادة ﴿لِّيُضِلَّ﴾ أي الناس بذلك ﴿عَن سَبِيلِهِ﴾ الذي هو التوحيد ﴿قُلْ﴾ تهديداً لذلك الضال ﴿تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا﴾ أي تمتعاً قليلاً، أو زماناً قليلاً ﴿إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ أي من ملازميها والمعذبين فيها.

﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٩﴾﴾.

﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ﴾ من تمام الكلام كأنه قيل له تأكيداً للتهديد: أأنت

أحسن حالاً ومآلاً، أم من هو قائم بموجب الطاعات، ودائم على أداء وظائف العبادات؟ ﴿ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ﴾ أي في ساعاته، حالتي السراء والضراء، لا عند مساس الضر فقط ﴿سَاجِدًا وَقَآئِمًا﴾ أي جامعاً بين الوصفين المحمودين، وآناء الليل ساعات الليل، أوله، ووسطه، وآخره، وفي هذه اللفظة تنبيه على فضل قيام الليل لأنه استر عن العيون فيكون أبعد من الرياء ﴿يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾ أي يخاف من عذاب الآخرة ﴿وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ﴾ فينجو بذلك مما يحذره، ويفوز بما يرجوه، ودلت الآية الكريمة على أن المؤمن يجب أن يكون بين الخوف والرجاء، يرجو رحمته ويحذر عقابه.

روي عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ دخل على شاب، وهو في حالة الموت، فقال له: كيف تجدك؟ قال: أرجو الله يا رسول الله، وأخاف ذنوبي، فقال ﷺ: «لا يجتمعان في قلب عبد في مثل هذا الموطن، إلا أعطاه الله ما يرجو منه، وآمنه مما يخاف»[1] والرجاء إذا جاوز حده يكون أمناً، والخوف إذا جاوز حدَّه يكون يأساً، وكلاهما محظور، قال الله تعالى: ﴿فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ وقال تعالى: ﴿لَا يَيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾[2] ﴿قُلۡ﴾ بياناً للحق، وتنبيهاً على شرف العلم والعمل ﴿هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ﴾؟ أي يعلمون حقائق الأحوال، كالقانت المذكور، والذين لا يعلمون شيئاً ما، وقيل هو وارد على سبيل التشبيه، أي كما لا يستوي العالمون والجاهلون، لا يستوي القانتون والعاصون، بدأ الآية بذكر العمل، وختم فيها بذكر العلم، وهذا يدل على أن كمال الإنسان محصور في هذين المقصودين، وأنه تعالى نبه على أن الانتفاع بالعمل، إنما يفيد إذا واظب عليه الإنسان، وقوله تعالى: ﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ﴾ فهو تنبيه عظيم على فضيلة العلم، قال صاحب الكشاف أراد ﴿الذين يعلمون﴾ الذين سبق ذكرهم،

---

(١) الحديث أخرجه الترمذي رقم ٩٨٣ في الجنائز، وابن ماجه رقم ٤٢٦١ في الزهد.
(٢) سورة يوسف، آية: ٨٧.

وهم القانتون، وهو تنبيه على أن من لم يعمل فهو غير عالم، وفيه ازدراء عظيم بالذين يقتنون العلوم ثم لا يعملون بها، فهم عند الله جهلة ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي إنما يتعظ بهذا أصحاب العقول، الخالصة عن شوائب الخلل.

﴿قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾.

﴿قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أُمِرَ رسولُ الله ﷺ بتذكير المؤمنين، وحملهم على التقوى، وفيه تشريف لهم بإضافتهم إلى ضمير الجلالة، ومزيد اعتناء بشأن المأمور به، فإن نقل عين أمر الله تعالى، أَدْخلُ في إيجاب الامتثال به ﴿ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ ۚ﴾ بامتثال أوامره واجتناب نواهيه ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ﴾ تعليل للأمر، أي لمن أحسن عمله وسار في طريق الهداية ﴿فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي عملوا الأعمال الحسنة في هذه الدنيا على وجه الإخلاص، وهو الذي عبر عنه ﷺ حين سئل عن الإحسان، بقوله: أن تعبد الله كأنك تراه ﴿حَسَنَةٌ﴾ أي حسنة عظيمة، وهي الجنة ﴿وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ﴾ فمن تعسر عليه التوفر على التقوى والإحسان في وطنه، فليهاجر الى حيث يتمكن فيه، كما هو سنة الأنبياء والصالحين، فإنه لا عذر له في التفريط أصلاً ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ ترغيب في التقوى المأمور بها، أي إنما يوفى الذين صبروا على دينهم، وحافظوا على حدوده، ولم يفرطوا في مراعاة حقوقه ﴿أَجْرَهُم﴾ بمقابلة ما كابدوا من الصبر ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي لا يحصى ولا يُحصر.

﴿قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾﴾.

﴿قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ أي عن كل ما ينافيه من الشرك والرياء وغير ذلك، قال مقاتل: إن كفار قريش قالوا للرسول ﷺ: ما

يحملك على هذا الدين، ألا تنظر إلى ملة أبيك وجدك وسادات ملتك؟ فأنزل الله هذه الآية.

﴿ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ ﴾.

﴿ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ أي وأمرت بذلك لأجل أن أكون مقدمهم في الدنيا والآخرة، كأنه ﷺ يقول: إني لست من الملوك الذين يأمرون الناس بأشياء وهم لا يفعلون ذلك، بل كل ما أمرتكم به، فأنا أول الناس شروعاً فيه، وأكثرهم مداومة عليه.

﴿ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ ﴾.

﴿ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي ﴾ بترك الإخلاص، والميل إلى ما أنتم عليه من الشرك ﴿ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ وهو يوم القيامة، وصف بالعظمة لعظمة ما فيه، من الدواهي والأهوال، والمقصود منه زجر الغير عن المعاصي، لأنه ﷺ مع جلالة قدره، إذا كان خائفاً من المعاصي فغيره أولى.

﴿ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِي ﴿١٤﴾ ﴾.

﴿ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِي ﴾ أمر ﷺ بالإخبار بامتثاله للأمر، إظهاراً لتصلبه في الدين، وحسماً لأطماعهم، وتمهيداً لتهديدهم، فإن قيل: ما معنى التكرير؟ قلنا: هذا ليس بتكرار، لأن الأول إخبار بأنه مأمور من جهة الله تعالى بالعبادة، والثاني إخبار بأنه لا يعبد غير الله، لأن قوله: ﴿أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ الله﴾ لا يفيد الحصر، وقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ﴾ يفيد الحصر، يعني الله أعبدُ لا أعبد أحداً سواه.

﴿ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾ ﴾.

﴿ فَٱعۡبُدُواْ مَا شِئۡتُم ﴾ أن تعبدوه ﴿ مِّن دُونِهِۦۗ ﴾ تعالى، وليس أمراً، بل المراد الزجرُ والتوبيخ، وقيل له ﷺ: خالفتَ دين آبائك، فقد خسرت، فنزلت ﴿ قُلۡ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾ أي الكاملين في الخسران ﴿ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ﴾ بالضلال، ﴿ وَأَهۡلِيهِمۡ ﴾ بالإضلال، باختيار الكفر بدل الإيمان، أي أضاعوهما ﴿ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ ﴾ حين يدخلون النار، حيث عرّضوهما للعذاب السرمدي ﴿ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ﴾ أي هو الخسران الواضح الفادح الذي لا خسران مثله، وفي تصديرها بحرف التنبيه، والإشارة بذلك، وتوسيط ضمير الفصل، وتعريف الخسران، ووصفه بالمبين، مبالغة خالدة للتنفير عن عبادة غير الله.

﴿ لَهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ ظُلَلٞ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحۡتِهِمۡ ظُلَلٞۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾ ﴾.

﴿ لَهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ ظُلَلٞ ﴾ نوع بيان لخسرانهم، بعد تهويله بطريق الإبهام، أي لهم كائنٌ من فوقهم ظلل كثيرة متراكمة، بعضها فوق بعض، كائنة ﴿ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحۡتِهِمۡ ﴾ أيضاً ﴿ ظُلَلٞۚ ﴾ هي في الدركات للآخرين، أي أطباق كثيرة بعضها تحت بعض، والمراد إحاطة النار بهم من جميع الجوانب، ونظيرها قوله تعالى: ﴿لَهُم مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٞ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ﴾[1] ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ أي العذاب الفظيع الذي ﴿ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥۚ ﴾ ويحذرهم إياه، بآيات الوعيد، ليجتنبوا مما يوقعهم فيه ﴿ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴾ ولا تتعرضوا لما يوجب سخطي.

﴿ وَٱلَّذِينَ ٱجۡتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعۡبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰۚ فَبَشِّرۡ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ﴾.

(١) سورة الأعراف، آية: ٤١.

﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ المراد به الشيطان، وقيل: الأصنام، والأوثان، وكلُّ ما يعبد من دون الرحمن ﴿أَن يَعْبُدُوهَا﴾ بدل اشتمال منه ﴿وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ﴾ أي أقبلوا إليه معرضين عما سواه ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾ بالثواب على ألسنة الرسل من الملائكة عند حضور الموت، وعند الوضع في القبر، وعند الحشر، وعند الدخول في الجنة، بالروح والراحة والريحان، وهذه البشارة تكون بزوال المكروهات، وبحصول المرادات، قال الله تعالى: ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ﴾ ثم قال تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾ أي بشّرهم بالنعيم المقيم في دار الجنان.

﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾﴾.

﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ﴾ هم الموصوفون بالاجتناب والإنابة بأعيانهم، لكن وضع عباد موضع ضميرهم، تشريفاً لهم بالإضافة إليه سبحانه، فإذا اعترضهم أمران: واجبٌ وندب اختاروا الواجب، حرصاً على ما هو أقرب عند الله، وأكثر ثواباً، أو يستمعون القرآن وغيره فيتبعون القرآن، أما في المعاملات مثل أنه تعالى شرع القصاص، والديةَ، والعفو، فيؤثرون العفو، لأنه تعالى قال: ﴿وأن تعفوا أقرب للتقوى﴾ وعن ابن عباس رضي الله عنه: هو الرجل يجلس مع القوم، ويسمع الحديث فيه محاسنُ ومساوىء، فيحدّث بأحسن ما سمع، ويترك ما سواه ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ المنعوتون بالمحاسن الجميلة ﴿ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ للدين الحق ﴿وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي هم أصحابُ العقول السليمة، المستحقون للهداية، لا غيرهم من المكذبين الضالين.

﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾﴾.

﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي النَّارِ﴾؟ هم عبدة الطاغوت،

كما يلوح به التعبير عنهم بمن ﴿حَقَّ عَلَيهِ كَلِمةُ ٱلعَذَابِ﴾ فإن المراد بها قوله تعالى: ﴿لأَمْلأَنَّ جهنم..﴾ الخ وضع موضع الضمير ﴿مَنْ في النَّار﴾ للتنبيه على أن المحكوم عليه بالعذاب، بمنزلة الواقع في النار، وأن اجتهاده ﷺ في دعائهم إلى الإيمان، سعيٌ في إنقاذهم من النار.

﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ﴾ أي لهم درجات عالية في جنات النعيم، بمقابلة ما للكفرة من دركات سافلة في الجحيم، أي لهم علالي بعضها فوق بعض ﴿مَّبْنِيَّةٌ﴾ محكمة البناء، يعني الغرف العالية وإن كانت فوق بعضها، لكنها في القوة والشدة متينة ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ من غير تفاوت بين العلوِّ والسفل ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ مصدر مؤكد، أي وعدهم الله وعداً ﴿لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ﴾ لأن خُلف الوعد نقصٌ، استحال عليه سبحانه، روي عن أبي سعيد الخدري عن الرسول ﷺ أنه قال: «إن أهل الجنة ليتراءَوْن أهل الغرف من فوقهم، كما يتراءَونَ الكوكبَ الدريَّ، الغابر في الأفق، من المشرق أو المغرب، لتفاضل ما بينهم، فقالوا يا رسول الله: تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم؟ قال: بلى، والذي نفسي بيده رجالٌ آمنوا بالله، وصدَّقوا المرسلين»[1] قوله الغابر: أي الباقي في الأفق.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢١﴾﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ تمثيل الحياة الدنيا في سرعة

(١) أخرجه البخاري في الرقاق ١١/ ٣٦٦ ومسلم رقم ٢٨٣٠ في الجنة.

الزوال، تحذيراً من الاغترار بزهرتها، بإنزال الماء وما يترتب عليه من آثار قدرته تعالى ﴿فَسَلَكَهُۥ﴾ أي فأدخله ﴿يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي عيوناً ومجاري كالعروق في الأجساد، نابعة فيها ﴿ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ﴾ أي يخرج بهذا الماء، أنواع الزروع، والفواكه، والثمار، كما يخرج به أنواع الحبوب، من بر وشعير وغيرهما ﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾ أي يتم جفافه ويشرف أن يثور من منابته ﴿فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا﴾ من بعد خضرته ونضرته ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا﴾ فتاتاً متكسرة، كأن لم يغن بالأمس ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى ما ذكر ﴿لَذِكْرَىٰ﴾ لتذكيراً عظيماً ﴿لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ لأصحاب العقول الخالصة عن شوب الخلل، يتذكرون بذلك فلا يغترون ببهجتها، ويجزمون على قدرة الله على كل شيء، والحطامُ: ما يجفُّ ويتفتت، ويُكسر من النبت.

﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾﴾.

﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ شرحُ الصَّدر: عبارة عن تنوره بنور الإسلام، فإن الصدر محل للقلب، الذي هو منبع الروح، فانشراحه مستدع لاتساع القلب، واستضاءته بنوره ﴿فَهُوَ﴾ بموجب ذلك ﴿عَلَىٰ نُورٍ﴾ عظيم ﴿مِّن رَّبِّهِۦ ۚ﴾ هو اللطف الإلهي الفائض عليه، عند مشاهدة الآيات التكوينية، والتنزيلية، والتوفيق للاهتداء بها إلى الحق ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ﴾ من أجل ذكره، وهو أبلغ من أن يكون «عن ذكرِ الله» لأن القاسي من أجل الشيء، أشد تأبّياً من قبوله من القاسي عنه، أي إذا ذُكر الله عندهم أو آياته، اشمأزوا من أجله، وازدادت قلوبهم قساوة، كقوله تعالى: ﴿فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بما ذكر من قساوة القلوب ﴿فِى ضَلَٰلٍ﴾ أي بعدٍ عن الحق ﴿مُّبِينٍ﴾ أي ظاهر كونه ضلالاً، والنفس إذا كانت خبيثة، فسماعها لذكر الله لا يزيدها إلا قسوة، كحرارة الشمس تليّن الشمع، وتعقد الملح، فكذلك القرآن يليّن قلوب المؤمنين عند سماعه، ولا يزيد الكافر إلا قسوة وغلظة.

﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ ﴾.

﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ ﴾ هو القرآن الكريم أحسن الحديث لفظاً ومعنىً، ليس من جنس الشعر، ولا من جنس الخطب، ولا من جنس الرسائل، بل نوع يخالف الكل، وكل ذي طبع سليم، يستطيبه ويستلذه ﴿ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا ﴾ أي تشابه معانيه في الصحة والأحكام، وتناسب ألفاظه في الفصاحة والبيان، وتكامل نظمه في الإيجاز والإعجاز ﴿ مَّثَانِىَ ﴾ هو جمع مثنى بمعنى مردَّد ومكرَّر، لما ثَنَّى قصصه وأنباءه، وأوامره ونواهيه، فأكثر الأشياء المذكورة وقعت زوجين، مثل الأمر والنهي، والعام والخاص، والمجمل والمفصل، والجنة والنار، ونحو ذلك، وقيل: لأنه يثنى في التلاوة ﴿ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ﴾ أي تضطرب وتفزع خوفاً مما فيه من الوعيد، روي عن العباس أن النبي ﷺ قال: «إذا اقشعر جلد المؤمن من خيفة الله، تحاتت عنه ذنوبُه، كما يتحات عن الشجرة اليابسة ورقها» ﴿ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ أي إذا ذكرت آيات الوعيد اقشعرت جلود الخائفين من الله، وإذا ذكرت آيات الوعد والرحمة لانت جلودهم وسكنت قلوبهم، قال قتادة: هذا نعتُ أولياء الله، الذين نعتهم الله به، ولم ينعتهم بذهاب عقولهم والغشيان عليهم، إنما ذلك في أهل البدع، وهو من الشيطان، وروي عن عبد الله بن عروة بن الزبير قال: قلت لجدتي أسماء بنت أبي بكر الصدّيق: كيف كان أصحاب رسول الله ﷺ يفعلون إذا قرىء عليهم القرآن؟ قالت: كانوا كما نعتهم الله تعالى، تدمع أعينهم، وتقشعر جلودهم، قال عبد الله: فقلت لها: إن ناساً اليوم إذا قُرىء عليهم القرآنُ، خرَّ أحدهم مغشياً عليه، قالت: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، رُوي أن ابن عمر مرَّ برجل ساقط، فقال: ما بال هذا قالوا: إنه إذا قرىء عليه القرآن يسقط فقال ابن عمر: إنَّا لنخشى اللهَ وما نسقطُ! ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ أي

الكتاب الذي شرح أحواله ﴿هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ أن يهديه بصرف مقدوره إلى الاهتداء ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾ أي يخلق فيه الضلالة بصرف قدرته إلى مباديها، وإعراضه عما يرشده إلى الحق ﴿فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ يخلصه من الضلال.

﴿أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾﴾.

﴿أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ﴾ حذف الخبر كما حذف في نظائره، والتقديرُ: أفمن يتقي بوجهه شدة العذاب، كمن أَمِنَ من العذاب؟ والإنسان إذا لقي مخوفاً استقبله بيده، وطلب أن يقي بها وجهه، لأنه أعز أعضائه، والذي يُلقى في النار، يُلقى مغلولة يداه إلى عنقه، فلا قدرة له على الاتقاء أصلاً إلا بوجهه، وهذا أبشع أنواع العذاب ﴿وَقِيلَ﴾ من جهة خزنة النار ﴿لِلظَّٰلِمِينَ﴾ أي لهم، وضعَ المظهر للتسجيل عليهم بالظلم ﴿ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ أي وبال ما كنتم تكسبونه في الدنيا على الدوام، من الكفر والمعاصي.

﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾﴾.

أي من قبل كفار قريش، أي كذب الذين من قبلهم من الأمم السالفة ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي من الجهة التي لا يحتسبونها، ولا يخطر ببالهم إتيان الشر منها.

﴿فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾.

﴿فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ﴾ أي الذل والصغار ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ﴾ كالقتل

والإجلاء، ونحو ذلك من فنون النكال ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ﴾ المعدُّ لهم ﴿أَكْبَرُ﴾ لشدته ودوامه ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ شيئاً لعلموا ذلك، واعتبروا به.

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ يحتاج إليه الناظر في أمور الدين ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ كي يتذكروا به، ويتعظوا ببيانه.

﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ﴾ أي لا اختلال ولا تناقض فيه، فهو أبلغ من المستقيم، وقيل: المراد بالعوج الشك ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي يخافون عقاب الله، كما قال تعالى: ﴿ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾.

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾ للموحِّد والمشرك، إيراد الأمثال القرآنية، للتذكر والاتعاظ بها، وتحصيل التقوى أي جعل الله تعالى مثلاً للمشرك ﴿رَّجُلًا﴾ أي عبداً ﴿فِيهِ شُرَكَآءُ﴾ أي يتشارك في هذا العبد جماعة ﴿مُتَشَٰكِسُونَ﴾ متنازِعون، متخالفون، يأمر هذا بشيء، وينهى ذلك عنه، والشَّكسُ: السيِّءُ الخُلُقِ، المخالف للناس، ولا يرضى بالإنصاف، وهذا مثل المشرك، يعبد آلهة شتَّىٰ ﴿وَرَجُلًا﴾ أي وجعل للموحِّد مثلاً عبداً ﴿سَلَمًا﴾ خالصاً ﴿لِّرَجُلٍ﴾ لفرد معين ليس لغيره عليه سبيلٌ أصلاً ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ أي صفة وحالاً، وهو إنكار واستبعاد لاستوائهما لأن العبد المشترك فيه، لا

يدري أيهم يُرضي بخدمته، وعلى أيهم يعتمد، فهو في التحير وتوزع قلبه، ومن كان له سيد واحد، فهمُّه واحد، وقلبه مجتمع ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ تنبيه للموحدين على أن ما لهم من المزية إنما هو بتوفيق الله تعالى وأنها نعمة جليلة، موجبة عليهم أن يداوموا على حمده وعبادته ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك، مع كمال ظهوره، فيبقون في ورطة الشرك والضلال.

﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ﴾ أي ستموت، فلا خلود لأحد في الدنيا ﴿وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ سيموتون، أي إنكم جميعاً في صدد الموت.

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾﴾.

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ فتحتج عليهم بأنك بلغتهم ما أرسلت به من الأحكام والمواعظ، وهم قد لجُّوا في المكابرة والعناد في الدنيا، وقيل: المراد الاختصام العام بين الأنام، عن عبد الله ابن الزُّبير رضي الله عنه قال لما نزلت: ﴿ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون﴾ قال الزُّبير: «يا رسول الله أنكون على الخصومة بعد الذي كان بيننا في الدنيا؟ قال: نعم»[1] وعن أبي سعيد الخدري في هذه الآية قال: كنا نقول: «ربنا واحد، وديننا واحد، فما هذه الخصومة؟ فلمَّا كان يوم صفين، وشدَّ بعضنا على بعض بالسيوف، قلنا نعم هو هذا».

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَـٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ أي هو أظلمُ من كل ظالم، من

(١) أخرجه الترمذي رقم ٣٢٣٦ وفيه: فقال الزبير: إن الأمر إذاً لشديد.

افترى على الله سبحانه كذباً، بأن أضاف إليه الشريك والولد ﴿وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ﴾ أي بالأمر الذي هو عين الحق ونفس الصدق، وهو ما جاء به الرسول ﷺ ﴿إِذْ جَآءَهُۥٓ﴾ أي في أول مجيئه، من غير تدبر فيه ولا تأمل ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ أي أليس لهؤلاء الذين افتروا على الله سبحانه وسارعوا إلى التكذيب، مأوى ومسكن في جهنم؟ بالصدق في أول الأمر.

﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾ هو الرسول ﷺ ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ أي الموصُوفون بما ذكر من المجيء بالصدق، والتصديق به، هم المنعوتون بالتقوى التي هي أجلّ الرغائب.

﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ﴾ أي لهم كل ما يشاؤون، في الآخرة، لا في الجنة كما قيل، لما أن بعض ما يشاؤون من تكفير السيئات، والأمن من الفزع الأكبر، وسائر أهوال القيامة، إنما يقع قبل دخول الجنة ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي ذكر من حصول كل ما يشاؤون ﴿جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ على إحسانهم.

﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ أي وعدهم الله زوال المضار، وحصول المسار، ليكفر عنهم بموجب ذلك ﴿أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟﴾ خصَّ الأسوأ للمبالغة، أي أعمالهم السيئة مهما عظمت، ويجوز أن يكون بمعنى السيِّء، أي يكفِّر عنهم الأعمال السيئة ﴿وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟

يَعْمَلُونَ﴾ أي ويعطيهم ثوابهم، بأفضل محاسن أعمالهم، زيادة للأجر، لفرط إخلاصهم فيها.

﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ ﴾.

﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ﴾ استفهام إنكار للنفي، مبالغة في الإثبات كأن الكفاية من التحقق والظهور، بحيث لا يقدر أحد على أن ينكرها والمراد بالعبد رسول الله ﷺ، وهذا تسلية لرسول الله ﷺ، عما قالت له قريش: إنَّا نخاف أن تخبلك آلهتنا، ويصيبك مضرتها، كما قال قوم هود لنبيّهم: ﴿إِنْ نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾ ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ﴾ أي الأوثان التي اتخذوها آلهة، من دون الله تعالى ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾ أي يضلله عن طريق الهدى ﴿فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ يهديه إلى الحق.

﴿ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾ ﴾.

﴿ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ﴾ يصرفه عن مقصده، إذ لا راد لفعله، ولا معارض لإرادته، كما ينطق به قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ﴾ غالب لا يُغالب ﴿ذِى ٱنتِقَامٍ﴾ من أعدائه.

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾.

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ﴾ لوضوح الدليل على تفرده بالخالقية ﴿قُلْ﴾ تبكيتاً لهم ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ

﴿ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلۡ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾ أي بعدما تحققتم أن خالق العالم هو الله عزَّ وجلَّ، فأخبروني عن آلهتكم إن أرادني الله بضر، هل هنَّ يكشفن عني ذلك الضر؟ ﴿أَوۡ أَرَادَنِي بِرَحۡمَةٍ﴾ أي أرادني بنفع ﴿هَلۡ هُنَّ مُمۡسِكَٰتُ رَحۡمَتِهِۦۚ﴾؟ فيمنعها عني؟ وتعليق الضر والرحمة بنفسه ﷺ، للرد في نحورهم، حيث كانوا خوَّفوه مضرة الأوثان ﴿قُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُۖ﴾ في جميع أموري ﴿عَلَيۡهِ يَتَوَكَّلُ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾ لا على غيره أصلاً، لعلمهم بأن كل ما سواه، تحت ملكوته تعالى.

﴿قُلۡ يَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَٰمِلٞۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ٣٩﴾.

﴿قُلۡ يَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ﴾ أي على حالتكم التي أنتم عليها من العداوة ﴿إِنِّي عَٰمِلٞ﴾ أي على مكانتي، فحذف للاختصار، وللإشعار بأن حاله ﷺ لا تزال تزداد قوة، بنصر الله وتأييده، ولذلك توعَّدهم بكونه منصوراً عليهم، بقوله تعالى: ﴿فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾ أيُّنا الضالُّ؟.

﴿مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيۡهِ عَذَابٞ مُّقِيمٌ ٤٠﴾.

﴿مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ﴾ فإن خزي أعدائه، دليلُ غلبته ﷺ، وقد أخزاهم الله تعالى في الدنيا، كما في يوم بدر وغيره ﴿وَيَحِلُّ عَلَيۡهِ عَذَابٞ مُّقِيمٌ﴾ أي دائم، وهو عذاب النار، والمقصود التخويف.

﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّۖ فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ ٤١﴾.

﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ لِلنَّاسِ﴾ أي لأجلهم، فإنه مناط مصالحهم في المعاش والمعاد ﴿بِٱلۡحَقِّۖ﴾ ملتبساً به ﴿فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ﴾ بأن عمل فيه

﴿فَلِنَفْسِهِۦ﴾ أي إنما نفع به نفسه ﴿وَمَن ضَلَّ﴾ بأن لم يعمل بموجبه ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ لما أن وبال ضلاله مقصورٌ عليها ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ لتجبرهم على الهدى، وما وظيفتك إلا البلاغ.

﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾.

﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ﴾ أي يقبضها من الأبدان، بأن يقطع تعلقها عنها وتصرفها فيها، إما ظاهراً وباطناً كما عند الموت، أو ظاهراً فقط كما عند النوم ﴿فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ﴾ ولا يردها إلى البدن ﴿وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ أي النائمة إلى بدنها عند التيقظ ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ﴾ هو المضروب لموته، قيل: لكل إنسانٍ نَفْسان: نفسٌ بها الحياة، ونَفْسٌ بها التمييز، فالتي تُتَوَفَّىٰ في المنام هي نفس التمييز، لا نفس الحياة، إذ لو زالت لزال معها التنفس، والنائم يتنفس ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ أي فيما ذكر من التوفي ﴿لَءَايَٰتٍ﴾ عجيبة دالة على كمال قدرته تعالى، وحكمته، ورحمته ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في جلال الله وعظمته وقدرته، فثبت أن الموت والنوم من جنس واحد، إلا أن الموت انقطاع تام، والنوم انقطاع ناقص، ومثل هذه التدابير لا يمكن أن تكون إلا عن تدبير القادر، العليم، الحكيم.

﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾.

﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟﴾ أي بل اتخذ الكفار ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ من دونه تعالى ﴿شُفَعَآءَ ۚ﴾ تشفع لهم عنده تعالى ﴿قُلْ﴾ يا رسول الله ﴿أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ﴾؟ أي قل لهم أتتخذونها شفعاء، ولو كانوا لا

يملكون شيئاً من الأشياء، ولا عقل لهم؟ وجواب «لو» محذوف لدلالة المذكور عليه.

﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ﴾ أي هو مالكها، لا يستطيع أحد شفاعة ما، إلاَّ أن يكون المشفوع له مرضياً عنه والشفيع مأذونا له وكلاهما مفقود ههنا ﴿لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ﴾ تقرير له وتأكيد، أي له ملكهما وما فيهما، لا يملك أحد أن يتكلم في أمر بدون إذنه ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ يوم القيامة لا إلى أحد سواه.

﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ﴾ دون آلهتهم ﴿ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ ۖ﴾ ونفرت، كما في قوله تعالى: ﴿وإذا ذَكَرْتَ ربَّك في القرآن وحده ولَّوا على أدبارهم نفوراً﴾ ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ﴾ فرادى مع ذكر الله تعالى ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ لفرط افتتانهم بها، ونسيانهم حق الله تعالى، ولقد بولغ في بيان حالتيهم حيث إن الاستبشار هو أن يمتلىء القلب سروراً حتى تنبسط له بشرة الوجه، والاشمئزاز أن يمتلىء غيظاً وغماً حتى ينقبض جلد وجهه.

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِى مَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ أي التجىء إليه

تعالى بالدعاء، إذا تحيرت في أمر الدعوة، وضجرت من شدة المكابرة والعناد، فإنه القادر على الأشياء بجملتها ﴿أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ من الهدى والضلالة، وهذا يشمل كل مكابر ومعاند، وكل مؤمن وجاحد، عن أبي سلمة قال: سألتُ عائشة رضي الله عنها أيَّ شيء كان نبيُّ الله ﷺ يفتتح صلاته إذا قام من الليل؟ قالت: كان إذا قام من الليل افتتح صلاته قال: «اللهمَّ ربَّ جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، فاطر السماواتِ والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك، فيما كانوا فيه يختلفون، فاهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم»[1].

﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ﴾ أي لو كان لهم جميع ما في الأرض من الأموال ومثله معه ﴿لَافْتَدَوْا بِهِ مِن سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ﴾ أي لجعلوا كل ذلك فدية لأنفسهم من العذاب، وهيهات أن ينفعهم ذلك، وهذا وعيد شديد ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ أي ظهر لهم من فنون العقوبات، ما لم يكن في حسابهم، ولم يخطر على بالهم.

﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ سيئات أعمالهم حين تعرض عليهم

---

(١) الحديث أخرجه مسلم.

صحائفهم ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ أي أحاط بهم ﴿مَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أي جزاؤه.

﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾﴾.

﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا﴾ إخبار عن الجنس بما يفعله غالب أفراده، أي أنهم يشمئزون عن ذكر الله تعالى، فإذا مسهم ضر دعوا من اشمأزوا عن ذكره ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا﴾ أعطيناه إياها تفضلاً ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ﴾ أي على علمٍ مني بوجوه كسبه، أو أعطاه لما عَلِم أني له أهل ﴿بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ﴾ أي محنة، وابتلاء، واستدراج، وهو رد لما قاله، وتغيير السبك للمبالغة فيه، والإيذان بأن ذلك ليس من باب الإيتاء المنبىء عن الكرامة ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن الأمر كذلك، وفيه دلالة على أن المراد بالإنسان هو الجنس.

﴿قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿قَدْ قَالَهَا﴾ الضمير لقوله: ﴿إنما أوتيته على علم﴾ ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ كقارون حيث قال: ﴿أوتيته على علم عندي﴾ ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ من متاع الدنيا.

﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾﴾.

﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ ۚ﴾ جزاء سيئات أعمالهم ﴿وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ المشركين، أو المفرطون في الظلم والعتو ﴿سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟﴾ كما أصاب أولئك، والسينُ للتأكيد، وقد أصابهم حيث قُحطوا

سبع سنين، وقُتل صناديدهم يوم بدر ﴿وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾ أي فائتين من عذاب الله، لأن مرجعهم إليه تعالى.

﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾.

﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ﴾ أي أقالوا ذلك ولم يعلموا ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُۚ﴾ أي يوسّع على من يشاء، ويضيق على من يشاء ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي لآيات دالة على أن كل ما يحدث بتقدير الله جل وعلا، كما قال الشاعر:

فَلاَ السَّعْدُ يَقْضِي بـه المُشْتَرِي ... ولاَ النَّحْسُ يقضِي عَلَيْنا زُحَلْ
وَلَكِنَّهُ حُكْمُ رَبِّ السَّمَاءِ ... وَقَاضِي القُضَاةِ تَعَالَى وَجَلْ

﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾.

﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ أي أفرطوا في الجناية عليها، بالإسراف في المعاصي، وإضافة العباد إليه لتخصيص المؤمنين به، على ما هو عرف القرآن الكريم ﴿لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ﴾ أي لا تيأسوا من مغفرته ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ﴾ لمن يشاء فيما عدا الشرك ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ﴾ يستر عظائم الذنوب ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بكشف فظائع الكروب، والآية دالة على كمال الرحمة والغفران، نسأل الله تعالى الفوز بها، والنجاة من العصيان بفضله ورحمته.

﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾﴾.

﴿ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ ﴾ أي ارجعوا إليه بالتوبة والطاعة ﴿ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ ﴾ أي اخلصوا له العمل ﴿ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴾ أي إن لم تتوبوا قبل نزول العقاب ﴿ ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ ﴾ أي تمنعون منه.

﴿ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾.

﴿ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم ﴾ أي اتبعوا القرآن العظيم، بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، والزموا هديه، فهو أحسن كتاب أُنزل إليكم من ربكم ﴿ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ بمجيئه، لتتداركوا وتتأهبوا له.

﴿ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُّ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾.

﴿ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ ﴾ بالألف بدلاً من ياء الإضافة، أي، احضري هذا أوان حضورك ﴿ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُّ ﴾ أي على تفريطي وتقصيري ﴿ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ ﴾ أي في جانبه، وفي حقه وطاعته ﴿ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴾ أي المستهزئين بدين الله وأهله، أي فرطت وأنا ساخر.

﴿ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ ﴾.

﴿ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى ﴾ بالإرشاد إلى الحق ﴿ لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ أي الشرك والمعاصي.

﴿ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾.

﴿أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً﴾ أي رجعة إلى الدنيا ﴿فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ في العقيدة والعمل و«أو» للدلالة على أنه لا يخلو عن هذه الأقوال، تحسراً وتعلُّلاً، بما لا طائل تحته وقوله تعالى:

﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾﴾.

﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ رد من الله تعالى عليه، أي قد جاءتك آياتي، وبينت لك الهداية من الغواية، لكن تركت ذلك، واستكبرت عن قبوله، وآثرت الضلالة على الهدى، فلا عذر لك.

﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾﴾.

﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ﴾ بأن وصفوه بما لا يليق بشأنه تعالى كاتخاذ الولد ﴿وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ بما ينالهم من الشدة والهول، والذل والخزي ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى﴾؟ أي منزل ومقام ﴿لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ عن الإيمان والطاعة؟ بلى لهم مسكن ومأوى في دار الجحيم.

﴿وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾﴾.

﴿وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟﴾ عن الشرك والمعصية أي ينجيهم من جهنم ﴿بِمَفَازَتِهِمْ﴾ بفلاحهم وفوزهم بما يشتهون، أي ينجيهم الله تعالى من مثوى المتكبرين، ملتبسين بفوزهم بمطلوبهم ﴿لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ﴾ أي لا

يصيبهم الهلع والجزع، ولا تمسهم نار جهنم ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي لا يمس أبدانهم أذى، ولا قلوبهم حزن.

﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾﴾.

﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ﴾ أي خالق جميع الأشياء، وموجد جميع المخلوقات، وكل شيء يجري من خير وشر، وإيمان وكفر، بقضاء منه، لكن لا بالجبر بل بمباشرة الكاسب لأسبابها ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾ يتولى التصرف فيه كيفما يشاء.

﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾﴾.

﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ﴾ أي لا يملك أمرها، ولا يتمكن من التصرف فيها غيره، لأن الخزائن لا يتصرف فيها، إلاَّ من بيده مفاتيح الخزائن، والمقاليد هي المفاتيح جمع مقلاد وهو المفتاح ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ المعنى: إن الله تعالى هو الخالق لجميع الأشياء، والمتصرف فيها كيفما يشاء، بيده مقاليد العالم العلوي والسفلي، والذين كفروا بآياته التكوينية والتنزيلية هم الخاسرون أشد الخسران، لأنهم باعوا آخرتهم بدنياهم.

﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾﴾.

﴿قُلْ﴾ لمن دعاك إلى دين آبائك ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ﴾ أي أبعد مشاهدة هذه الآيات، غيرَ الله أعبد؟ و ﴿تَأمرونِّي﴾ اعتراضٌ، للدلالة على أنهم أمروه به، لفرط غباوتهم، وقد وصفهم بالجهل، لأن الدليل القاطع، قد قام بأنه تعالى هو المستحق للعبادة لا غيره، فمن عبد غيره بعد ذلك فهو جاهل.

﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾.

﴿ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ﴾ من الرسل ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ كلام وارد على طريقة الفرض، لتهييج الرسل عليهم السلام، وإقناط الكفرة، والإيذان بشناعة الإشراك، والخطاب للنبي ﷺ، والمراد به الناس، أو أمته الذين آمنوا به، تخويفاً لهم من عقوبة الإشراك.

﴿ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾.

﴿ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ ﴾ ردٌّ لما أمروه به ﴿ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ لإنعام ربك عليك بنعمة الإيمان والقرآن.

﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾.

﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ ﴾ أي ما قدروا عظمته تعالى، ولا عظَّموه حق تعظيمه، حيث جعلوا له شريكاً، هذه الأشياء الخسيسة، ووصفوه بما لا يليق بشؤونه الجليلة ﴿ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ﴾ تنبيه على عظمته، وكمال قدرته، ودلالة على أن تخريب العالم أهون شيء عليه، على طريقة التمثيل والتخييل، فالكون كله خاضع لإرادته وتدبيره، كقولهم شابت لمة الليل، والقبضة المرة من القبض، وهي المقدار المقبوض بالكف ﴿ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ أي تنَزَّه عن الشريك والنظير، والزوجة والولد.

﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ ﴾ .

﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ أي فإذا جميع الخلائق الأموات، يقومون من القبور، ينظرون إلى الحشر الأكبر.

﴿ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾ .

﴿ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ ﴾ ليس هي التي نقعد عليها الآن، بدليل قوله: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرضُ غير الأرض والسَّمَواتُ﴾ بل هي أرض أخرى، يخلقها الله تعالى، لمحفل يوم القيامة ﴿ بِنُورِ رَبِّهَا ﴾ بما أقام فيها من العدل، سماه نوراً لأنه يزين البقاع، ويظهر الحقوق، كما يسمى الظلم ظلمة، أو بنورٍ خَلَقه فيها، بلا توسط أجسام مضيئة، ولذلك أضيف إلى الاسم الجليل، كبيت الله، وأراد بالأرض عرصات القيامة ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ ﴾ الحساب والجزاء وصحائف الأعمال ﴿ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ ﴾ الذين يشهدون للأمم وعليهم، من الملائكة والمؤمنين ﴿ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ ﴾ أي بين العباد بالعدل ﴿ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ بنقص ثواب، أو زيادة عقاب.

﴿ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ .

﴿ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ ﴾ أي جزاء أعمالها، من خير أو شر ﴿ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ فلا يفوته شيء من أفعالهم.

﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾﴾.

﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا﴾ أي سيقوا إليها بالعنف والإهانة، أفواجاً متفرقة، والزُّمَرُ: جمع زمرة وهي الجماعة ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾ وكانت قبل ذلك مغلقة، فتحت فجأة لتستقبلهم ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ﴾ توبيخاً، والخزنة: حفظةُ جهنم وهم الملائكة الموكَّلون بتعذيب أهلها ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾؟ أي من جنسكم من البشر ﴿يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾؟ أي وقتكم هذا، وهو وقت دخولهم النار، واستعمال لفظ يوم في أوقات الشدة مستفيض، وفيه دليل على أنه لا تكليف قبل الشرع، لأنهم عللوا توبيخهم بإتيان الرسل، وتبليغ الكتب ﴿قَالُواْ بَلَىٰ﴾ أتونا وتلوا علينا وأنذرونا ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ حيث قال الله تعالى لإبليس: ﴿لأَمْلأَنَّ جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين﴾ وقد كنا ممن تبعه، كذَّبنا الرسل، وقلنا: ما نزَّل الله من شيء إن أنتم إلا تكذبون.

﴿قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾﴾.

﴿قِيلَ ٱدْخُلُوٓاْ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ أي بئست جهنم منزلاً ومأوى للمتكبرين، عن الإيمان بالله وتصديق رسله.

﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾.

﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا ﴾ مساق إعزاز وتشريف للإسراع بهم إلى دار الكرامة، وقيل: سيقت مراكبهُم، إذ لا يُذهب بهم إلاَّ راكبين، ﴿ زُمَرًا ﴾ أي متفاوتين حسب تفاوت مراتبهم في الفضل، وعلوّ الطبقة ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا ﴾ وجواب «إذا» محذوف للإيذان بأن لهم حينئذ من فنون الكرامات ما لا يحيط به البيان، وفيه دليل على أن أبواب الجنة، تفتح لهم قبل مجيئهم، كأنه قيل: حتى إذا جاؤوها وقد فتحت أبوابها، بدليل قوله تعالى: ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ﴾[1] ﴿ وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ﴾ من جميع المكاره والآلام ﴿ طِبْتُمْ ﴾ أي طهرتم من دنس المعاصي، أو طبتم نفساً بما أتيح لكم من النعيم ﴿ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴾ أي ادخلوا جنة النعيم والخلود، ماكثين فيها أبداً دون خروج ولا انتهاء.

﴿ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾.

﴿ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ ﴾ بالبعث والثواب ﴿ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ ﴾ يريدون المكان الذي استقروا فيه، أو تمكينهم من التصرف فيها تمكين الوارث فيما يرثه ﴿ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ﴾ أي يتبوأ كل واحد منا في أي مكان أراده من جنته الواسعة، على أن فيها مقامات معنوية لا يتمانع واردها ﴿ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴾ أي نعم ثواب المطيعين الجنة.

﴿ وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۚ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾ ﴾.

---

(١) سورة صٓ، آية: ٥٠.

﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ﴾ أي محدقين، محيطين ﴿مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ﴾ بحافته وجوانبه ﴿يُسَبِّحُونَ﴾ أي ينزهونه تعالى عما لا يليق به، ملتبسين ﴿بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ أي ذاكرين له تعالى بوصفي جلاله واكرامه، تلذذاً به، وفيه إشعار بأن أقصى درجات العليين، و أعلى لذائذهم، هو الاستغراق في شؤونه عزَّ وجلَّ ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ أي بين الخلق، بإدخال بعضهم الجنة، وبعضهم النار ﴿وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي على ما قضى بيننا بالحق، والقائلون هم المؤمنون، كما قال الله تعالى: ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أن الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمينَ﴾ والله أعلم بمراده وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد الله رب العالمين.

«تم بعونه جل وعلا تفسير سورة الزمر»

* * *

سُورَةُ غَافِرٍ

مكية وآيها خمس وثمانون آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٢﴾.

﴿حمٓ﴾ بتفخيم الألف وتسكين الميم وهو اسم للسورة.

﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾.

﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ۝٣﴾.

﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ﴾ ساتر ذنب المؤمنين، الغَفْرُ: هو الستر، أي يستر ذنب المسيء، ويتوب على التائب، فإن التائب من الذنب كمن لا ذنب له ﴿وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ﴾ والتوب مصدر كالتوبة ﴿شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ﴾ على المخالفين ﴿ذِى ٱلطَّوْلِ﴾ ذي الفضل والإنعام على العارفين، والطَّوْلُ: الفضل بترك العقاب المستحق، والإنعامُ الذي تطول مدته على صاحبه ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي لا معبود بحق إلا الله، فهو الموصوفُ بالوحدانية، التى لا يوصف بها غيره، فيجب الإقبال على طاعته، في أوامره، ونواهيه ﴿إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ فحسب، لا إلى غيره، فيجازي كلاً من المطيع والعاصي بما يستحقه.

﴿ مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغُرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴿٤﴾ ﴾.

﴿ مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ أي بالطعن فيها، واستعمال المقدمات الباطلة، لإدحاض الحق كقوله تعالى بعده ﴿وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ﴾ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بها، وأما الذين آمنوا فلا يخطر ببالهم شائبة شبهة، فضلاً عن الطعن فيها، وأما الجدال فيها بحل مشكلاتها، وكشفِ معضلاتها، واستنباط حقائقها، وتوضيح مناهج الحق، وإبطال شبه أهل الزيغ والضلال، فمن أعظم الطاعات، وأكبر جهاد في سبيل الله[1] والمقصود بالآية الأول، وهو الاختلاف والطعن في آيات الله بإثارة الشبه، كما روى مسلم عن عبد الله بن عَمرو بن العاص قال: قال ﷺ: «إنما هَلَك من كان قبلكم، باختلافهم في الكتاب»[2] ﴿فَلَا يَغُرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾ أي فلا يغررك إمهالهم، وإقبالهم في دنياهم، وتقلبهم في أسفارهم بالتجارات المربحة، فإنهم مأخوذون عن قريب.

﴿ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۖ وَهَمَّتۡ كُلُّ أُمَّةِۭ بِرَسُولِهِمۡ لِيَأۡخُذُوهُۖ وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ فَأَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ ﴾.

﴿ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۖ ﴾ أي الذين تحزبوا على الرسل، وناصبوهم العداء، وهم عاد، وثمود، وقوم لوط، وغيرهم

---

(١) الجدال في القرآن نوعان: جدالٌ في تقرير الحق، وإبطال شبه الضالين، فهو جهاد وعمل ممدوح، وهو حرفة الأنبياء، قال تعالى: ﴿وجادلهم بالتي هي أحسن﴾ وجدال لتقرير الباطل، وبثّ الشبه والأباطيل، وهذا هو المراد بالآية هنا، وهو جدال الكفرة في الآيات.

(٢) الحديث أخرجه مسلم في صحيحه رقم ٢٦٦٦ باب النهي عن المتشابه في القرآن.

﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ﴾ من تلك الأمم العاتية ﴿بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾ ليتمكنوا منه، فيصيبوا به ما أرادوا، ويبطشوا به وبأتباعه، من تعذيب أو قتل، من الأخذ بمعنى الأسر ﴿وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ الذي لا حقيقة له أصلاً ﴿لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ﴾ أي ليبطلوا ويزيلوا به ﴿ٱلْحَقَّ﴾ الذي جاءت به الرسل صلوات الله عليهم ﴿فَأَخَذْتُهُمْ﴾ بسبب ذلك أخذ عزيز مقتدر، بالهلاك السريع ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾؟ أي فكيف كان عقابي الذي عاقبتهم به؟ فإن آثار دمارهم عبرة للناظرين.

﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٦﴾﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ أي كما وجب وثبت حكمه بالتعذيب على أولئك الأمم المكذبة المتحزبة على رسلهم، وجب أيضاً ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ أي كفروا بك وتحزبوا عليك ﴿أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ أي لأنهم مستحقو أشد العقوبات وأفظعها، التي هي عذاب النار أبداً. روي أن عمر رضي الله عنه افتقد رجلاً من أهل الشام، فقيل له: تتابع في هذا الشراب يعني الخمر، فقال عمر لكاتبه: اكتب: «من عمر بن الخطاب إلى فلان، سلام عليك، بسم الله الرحمن الرحيم ﴿حمٓ. تنزيل الكتاب﴾ إلى قوله: ﴿إليه المصيرُ﴾ وختم الكتاب، وقال لرسوله لا تدفعه إليه حتى تجده صاحياً، ثم أمر مَنْ عنده بالدعاء له بالتوبة، فلما أتته الصحيفة جعل يقرؤها ويقول: وعدني الله أن يغفر لي، وحذَّرني من عقابه، فلم يبرح يردِّدها حتى بكى، ثم نَزَع فأحسن النزوع والترك، وحسنت توبته، فلمَّا بلغ عمر أمرَه، قال: هكذا فاصنعوا إذا رأيتم أخاكم زلَّ، فسدِّدوه، وادعوا له الله أن يتوب عليه، ولا تكونوا أعوان الشياطين عليه»[1].

(١) انظر كتاب سيرة عمر بن الخطاب للشيخ الطنطاوي.

﴿ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٧﴾ ﴾ .

﴿ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ ﴾ وهم سادة الملائكة، وحملهم إياه حفظهم وتدبيرهم له كما قال سبحانه: ﴿ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية﴾ ﴿ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ أي ينزهون الله تعالى عن كل ما لا يليق بجلاله وعظمته، حامدين له على نعمائه، والجملة استئناف مسوق للتسلية، ببيان أن أشراف الملائكة، مثابرون على ولاية الرسول والمؤمنين، ونصرتهم، كأنه تعالى يقول: إنَّ هؤلاء الكفار يبالغون في العداوة، فلا تبالِ بهم، فإنَّ حملة العرش، ومن حوله معك، ويبالغون في إظهار المحبة والنصرة للمؤمنين ﴿ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ ﴾ إيماناً حقيقياً، والتصريح به لإظهار فضيلة الإيمان، وإبراز شرف أهله ﴿ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ فإن المشاركة في الإيمان، أقوىٰ المناسبات وأتمها، وأدعى الدواعي إلى النصح والشفقة ﴿ رَبَّنَا ﴾ على إرادة القول، أي يقولون ﴿ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا ﴾ أي وسعتْ رحمتُك وعلمك كل شيء، وفي وصفه تعالى بالرحمة والعلم، مزيدُ تعظيم للرب جلَّ وعلا وتقديم الرحمة، لأنها المقصودة بالذات ههنا ﴿ فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ ﴾ أي الذين علمت منهم التوبة الصادقة، واتباع سبيل الحق ﴿ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴾ واحفظهم من نار جهنم.

﴿ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ ﴾ .

﴿ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ ﴾ عطف على قهم ﴿ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۚ ﴾ أي صلاحاً مصححاً لدخول الجنة في

الجملة، وإن كان دون صلاح أصولهم، أي وأدخل معهم هؤلاء، ليتم سرورهم بهم ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ﴾ أي الغالب الذي لا يمتنع عليه مقدور ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ أي الذي لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة والمصلحة.

﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾﴾.

﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ﴾ أي العقوبات عقوبات المعاصي، بمعنى احفظهم من فعل المعاصي، وهو تعميم بعد تخصيص ﴿وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥ ۚ﴾ أي ومن تقه المعاصي في الدنيا، فقد رحمته في الآخرة ﴿وَذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى دخول الجنة، والوقاية من نار الجحيم ﴿هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ الذي لا مطمع وراءه لطامع.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ شروع في بيان أحوال الكفرة بعد دخولهم النار، وهم الذين يجادلون في آيات الله ﴿يُنَادَوْنَ﴾ أي من مكان بعيد، وهم في النار، والمنادي هم خزنة جهنم، يقولون لأهل النار، وقد مقتَ بعضُهم بعضاً، بسبب الضلال والإضلال، ولعن بعضهم بعضاً، كما قال تعالى: ﴿ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بَعْضاً﴾[1] فيقال عند ذلك لهم: ﴿لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ المقت: أشدُّ البغض، أي لبغضُ الله الشديد لكم في الدنيا، أعظم من بغضكم اليوم لأنفسكم ﴿إِذْ تُدْعَوْنَ﴾ أي حين كنتم تدعون من جهة الأنبياء ﴿إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ﴾ اتباعاً لأهوائكم، واقتداءً لأخلاَّئكم المضلين.

---

(١) سورة العنكبوت، آية: ٥٥.

﴿قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾﴾.

﴿قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾ أي إماتتين، وإحياءتين، أو موتتين وحياتين، أرادوا بالإماتة الأولى خلقهم أمواتاً، كما في قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ، ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾[1] وبالثانية إماتتهم عند انقضاء آجالهم، وبالإحياءتين الحياة الأولى، في الدنيا، وَإحياء البعث واحتج أكثر العلماء بهذه الآية على إثبات عذاب القبر كما نصت عليه السنة النبوية أيضاً ﴿فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا﴾ فلما شاهدوا البعث، اعترفوا بذنبهم، ليتوسلوا بذلك إلى ما علَّقوا به أطماعهم، من الرجعة إلى الدنيا، كما قد صرَّحوا به، حيث قالوا: ﴿فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً﴾ وهو الذي أرادوه بقولهم ﴿فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾ أي هل تردنا إلى الدنيا لنَعمل بطاعتك؟ قالوه مع نوع استبعاد له، واستشعار يأس منه، وتنكير ﴿سَبِيلٍ﴾ للإبهام، أي من سبيل ووسيلة للخروج من النار؟.

﴿ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ ۚ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾﴾.

﴿ذَٰلِكُم﴾ جواب لهم باستحالة ما يرجون، أي ذلكم الذي أنتم فيه من العذاب ﴿بِأَنَّهُۥٓ﴾ أي بسبب أن الشأن ﴿إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ﴾ في الدنيا، أي عُبد ﴿وَحْدَهُۥ﴾ أي منفرداً ﴿كَفَرْتُمْ﴾ بتوحيده ﴿وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟﴾ أي بالإشراك به، وتسارعوا فيه، وحيث كان حالكم كذلك ﴿فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ﴾ الذي لا يحكم إلا بالحق، ﴿ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ﴾ الذي ليس كمثله شيء، لا في ذاته،

---

(١) سورة البقرة، آية: ٢٨.

ولا في صفاته، ولا في أفعاله، والمشبِّهة استدلوا بالعلو في الجهة، والكبير في الجثة، وكل ذلك باطل.

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾.

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ من السحاب، والرعد، والبرق، والصواعق، ونحوها الدالة على شؤونه العظيمة، الموجبة لتفرده بالألوهية ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا﴾ أي سبب رزق وهو المطر، وإفراده بالذكر مع كونه من جملة الآيات، لكونه من آثار رحمته، وجلائل نعمته، الموجبة للشكر، وصيغة المضارع في الفعلين ﴿يريكم﴾ و ﴿ينزّلُ﴾ للدلالة على تجدد ذلك، حيناً بعد حين، فإنَّ أهم المهمات، رعاية مصالح الأديان، ومصالح الأبدان، فالله سبحانه راعي مصالح الأديان بإنزال الآيات، ومصالح الأبدان بإنزال الأرزاق، وعند حصولهما يحصل الإنعام التام، على أكمل الجهات ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ﴾ بتلك الآيات الباهرة، والنعم الكثيرة، ﴿إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ أي من يرجع إلى الله تعالى بالتوبة والإنابة، ويتفكر فيما أودعه الله في تضاعيف مصنوعاته، من شواهد قدرته الكاملة، ونعمته الشاملة، الموجبة لتخصيص العبادة به تعالى، ومَنْ ليس كذلك فهو بمعزل من التذكر والاتعاظ.

﴿فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾﴾.

﴿فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أي إذا كان الأمر كذلك فاعبدوه أيها المؤمنون، مخلصين له دينكم ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ ذلك، وغاظهم إخلاصكم.

﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾﴾.

﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ﴾ أي عظيم الشأن والسلطان، صاحب الرفعة والمقام العالي، ويحتمل أن يكون المراد منه الرافع، لأنه تعالى يرفع درجات الأنبياء، والأولياء في الجنة، ورافعُ درجات العلماء، فللملائكة درجاتٌ معيَّنة، كما قال: ﴿وَمَا مِنَّا إِلاَّ لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾[1] وقال في حق العلماء: ﴿يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ والذين أُوتُوا العِلمَ دَرَجَاتٍ﴾[2] ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ﴾ أي مالكه وخالقه، فهو صاحب العرش العظيم الذي لا يعلم سعته إلا الله، ذكره تعالى إيذاناً بعلو شأنه، وعظيم سلطانه، الموجبَيْن لتخصيص العبادة به، وإخلاص الدين له ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ﴾ أي ينزل الوحي على من شاء من خلقه، فالمراد بالروح «الوحيُ الرباني» سمي روحاً لأنه يسري إلى النفس كسريان الروح في الجسد، ذكره تعالى بعد بيان إنزال الرزق الجسماني، لأنه لا بدَّ من غذاء الروح، وغذاء الجسد، وقوله تعالى: ﴿مِن أَمْرِهِۦ﴾ أي بسبب أمره بالخير ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ أي على أنبيائه ورسله، وهم الذين اصطفاهم للرسالة، وتبليغ أحكامه إلى عباده ﴿لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ وهو يوم القيامة، لأنه يتلاقى فيه أهل السماوات والأرض، والظالم والمظلوم.

﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾﴾.

﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ﴾ أي خارجون من قبورهم، ظاهرون لا يسترهم شيء،

---

(١) سورة الصافات، آية: ١٦٤.

(٢) سورة المجادلة، آية: ١١.

كما جاء في الحديث «يحشرون عُراة حُفاة» ﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾ أي شيء ما من أعمالهم، وأحوالهم، الجليّة والخفية، ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ حكاية لما يقع حينئذ من السؤال والجواب، أي يقال لمن الملك؟ أي ينادي مناد لمن الملك؟ فيجيبه أهل المحشر، لله الواحد القهار، وقيل: المجيب والسائل هو الله تعالى، ينادي الله جل وعلا، لمن الملك اليوم، فيسكت الخلائق هيبةً لله وفزعاً، فيجيب تعالى نفسه قائلاً: ﴿لله رب العالمين﴾.

﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾﴾.

﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ﴾ أي في ذلك اليوم ـ يوم الحشر بين العباد ـ، تجازى كلُّ نفس من النفوس، البرَّة والفاجرة، بما كسبت من خير أو شر ﴿لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ﴾ بنقص ثواب، أو زيادة عقاب، لأنه تعالى ليس بظلام للعبيد ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ أي سريعٌ حسابهُ، إذ لا يشغله شأن عن شأن، فيحاسب الخلائق قاطبة في أقرب زمان، كما يرزقهم في ساعة واحدة، يحاسبهم كذلك في ساعة واحدة، وقد ورد في الخبر «لا ينتصف النهار حتى يَقِيل ـ أي يستريح ـ أهلُ الجنة في الجنة، وأهلُ النار في النار»[1].

﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾﴾.

﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْـَٔازِفَةِ﴾ أي يوم القيامة، سميت بها لأزوفها وهو القرب،

(١) انظر الجامع لأحكام القرآن تفسير القرطبي ٣٠١/١٥ والقيلولة هي الاستراحة وقت الظهيرة.

غير أن فيه إشعاراً بضيق الوقت، أَزِف الرحيلُ: أي قَرُب، والإنسانُ عند معاينة ملائكة العذاب يعظم خوفُه، فكأنَّ قلوبهم تبلغ حناجرهم من شدة الخوف، ولهذا قال: ﴿إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ﴾ بدل من يوم الآزفة، فإنها ترتفع من أماكنها فتلتصق بحلوقهم، ولا تخرج فيستريحوا بالموت ﴿كَٰظِمِينَ﴾ أي ممتلئين همّاً وحسرة، كاظمين على الغَمِّ والكربة ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ﴾ أي قريب مشفق أو صديق مخلص ﴿وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ أي ولا شفيع يشفع لهم، لينقذهم من العذاب.

﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾﴾.

﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ﴾ النظرة الخائنة بمسارقة النظر، قال ابن عباس: هو الرجل يكون جالساً مع الناس، فتمرُّ المرأة فيسارعهم النظر إليها ﴿وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ من الضمائر والأسرار.

﴿وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾﴾.

﴿وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ ۖ﴾ لأنه المالك الحاكم على الإطلاق، فلا يقضي بشيء إلاَّ وهو حقٌّ وعدل ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ أي والذين يعبدونهم من دون الله ﴿لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍ ۗ﴾ أي لا يحكمون بشيء أصلاً، لأنها جمادات، والجماد لا يقال في حقه يقضي، أو لا يقضي ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ تقرير لعلمه تعالى بخائنة الأعين، وقضائه بالحق، وهو وعيدٌ للخلق.

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾﴾.

﴿ ۞ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ من الأمم المكذبة كعاد وثمود ﴿ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ﴾ أي قدرة وتمكناً من التصرفات ﴿ وَءَاثَارًا ﴾ مثل القلاع الحصينة، والمدائن المتينة ﴿ فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ﴾ أخذاً وبيلاً ﴿ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴾ يقيهم من العذاب، وينجيهم من الهول والكرب.

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَكَفَرُوا۟ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٢﴾ ﴾.

﴿ ذَٰلِكَ ﴾ ما ذكر من الأخذ ﴿ بِأَنَّهُمْ ﴾ أي بسبب أنهم ﴿ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ أي بالمعجزات الباهرات، والآيات الساطعات الظاهرات ﴿ فَكَفَرُوا۟ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ ﴾ متمكن مما يريد غاية التمكن ﴿ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾ أي عقابه شديد، وعذابه وجيع، لا يؤبه عند عقابه عقابٌ.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ ﴾.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا ﴾ وهي معجزاته ﴿ وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴾ أي وحجة قاهرة تدل على صدقه.

﴿ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ ﴾.

﴿ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴾ فيما أظهره من المعجزات، وفيما ادعاه من الرسالة، وفيه تسلية للرسول ﷺ، وبيان لعاقبة من هم أشد من كفار مكة.

﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٢٥﴾ ﴾ .

﴿ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ ﴾ وهو ما ظهر على يده من المعجزات ﴿ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ ﴾ كما قال فرعون (سنقتّل أبناءهم ونستحيي نساءهم) وهذا القتل غير القتل الذي وقع في ولادة موسى عليه السلام، وكان فرعون قد كفَّ عن قتل الوِلْدان، فلمَّا بُعث عليه السلام، وأحسَّ بأنه وقع ما وقع، أعاده عليهم، غيظاً وحنقاً، زعماً منه أنه يصدهم بذلك عن دين موسى عليه السلام ﴿ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴾ أي في ضياع، وفي تخبُّطٍ وخسران، بعيد عن نور الإيمان.

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾ ﴾ .

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ ﴾ أي اتركوني لأقتل لكم موسى، يقوله لقومه كأنه يستشيرهم في قتله، وفي الطاغية خبث وجبروت، فقد كان فرعون سفاكاً للدماء لأهون الأشياء، فكيف لا يقتل من أحسَّ منه بأنه يثُلُّ عرشه؟ والظاهر أن فرعون لعنه الله، كان قد استيقن أنه نبي، ولكنْ كان يخاف إن همَّ بقتله أن يعاجله الله بالهلاك، وكان قوله هذا تمويهاً على قومه ﴿ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ﴾ تجلُّدٌ منه، وإظهار لعدم المبالاةِ بدعائه، ولكنه أخوف ما يخافه لعلمه بصدقه ﴿ إِنِّىٓ أَخَافُ ﴾ إن لم أقتله ﴿ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ ﴾ أي أن يغيِّر ما أنتم عليه من الدين، الذي هو عبادة الأصنام ﴿ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴾ أي يثير الفتن والأحداث في بلدكم.

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ ﴾ .

﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ﴾ لقومه حين سمع بما يقوله من حديث قتله ﴿إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ صدَّر كلامه بإن تأكيداً له، وإظهاراً لمزيد الاعتناء بمضمونه، وخصَّ اسم الرب المنبىء عن الحفظِ والتربية، وإضافته إليه وإلى قومه حثاً لهم على موافقته في العياذة، والتوكل عليه، فإن في تظاهر النفوس تأثيراً قوياً في استجلاب الإجابة، لأن الأرواح الطاهرة القوية إذا تطابقت على همة واحدة، قوي ذلك جداً، وذلك هو السبب الأصلي في أداء الصلاة بالجماعة، ولم يسمّ فرعون لتعميم الاستعاذة من كل طاغية متكبر.

﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾﴾.

﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ كان ابن عم لفرعون، آمن بموسى سراً وكان من الأقباط ﴿يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ﴾ من فرعون وملئه ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا﴾ أي أتقصدون قتله ﴿أَن يَقُولَ﴾ أي لأن يقول ﴿رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ أي وحده، من غير رويَّة وتأملٍ في أمره ﴿وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ والحال أنه قد جاءكم بالمعجزات الظاهرة التي شاهدتموها ﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾ أضافه إليهم استنزالاً لهم عن رتبة المكابرة، ثم أخذهم بالاحتجاج من باب الاحتياط فقال: ﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ﴾ لا يتخطى كذبه أحداً منكم فيحتاج في دفعه إلى قتله ﴿وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾[1] أي ينزل بكم

(١) إنما ذكر البعض تلطفاً بهم، مبالغاً في نصحهم، وإلا فهو موقن بأن العذاب الذي أوعدهم به موسى سينزل بهم كله، وإنما لم يقل يصبكم كل العذاب، لئلا يعلموا أنه على دينه، وأنه متعصب لموسى عليه السلام.

بعضُ ما وعدكم به، إن تعرضتم له بسوء، وهذا كلام صادر عن غاية الإنصاف، وعدم التعصب، ولذلك قدَّم كونه كاذباً ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ احتجاج آخر ذو وجهين:

أحدهما: أنه لو كان مسرفاً كذَّاباً، لما هداه الله إلى البينات.

وثانيهما: إن كان كذلك خذله الله فلا حاجة إلى قتله، وقد عرَّض به بكلامه على فرعون، بأنه مسرف كذاب، لا يهديه الله سبيل الصواب، ما زاد موسى عليه السلام في دفع فرعون، على الاستعاذة بالله، فقيَّض الله تعالى إنساناً أجنبياً، حتى ذبَّ عنه تلك الفتنة والشر، ولقد جربت في أحوال نفسي، أنه كلما قصدني شرير بشر، لم أتعرض له، وأكتفي بتفويض ذلك الأمر إلى الله تعالى، فإنه سبحانه يقيِّض أقواماً لا أعرفهم يبالغون في دفع ذلك الشر عني.

﴿يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ﴾ أي غالبين على بني إسرائيل ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي أرض مصر، لا يقاومكم أحد في هذا الوقت ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ﴾ أي من أخذه وعذابه ﴿إِن جَآءَنَا ۚ﴾ بقتل موسى ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ﴾ بعدما سمع نصحه ﴿مَآ أُرِيكُمْ﴾ أي ما أشير عليكم ﴿إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾ أي ما أستصوبه من قتله ﴿وَمَآ أَهْدِيكُمْ﴾ بهذا الرأي ﴿إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ أي الصواب، يقول ذلك متظاهراً بالجَلد والشجاعة، ولقد كذب حيث كان مستشعراً للخوف الشديد، ولكنه كان يتجلَّد، ولولاه لما استشار أحداً!!.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾﴾.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم﴾ في تكذيبه والتعرض له بالسوء

﴿مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ﴾ أي مثل أيام الأمم الماضية، كيف أهلكهم الله بشتى أنواع العذاب، بالفرق، والريح العاتية، والصيحة المدمرة.

﴿مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾﴾.

﴿مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ﴾ أي مثل جزاء ما كانوا عليه من الكفر وإيذاء الرسل ﴿وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ﴾ كقوم لوط ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ فلا يعاقبهم بغير ذنب، وفيه مبالغة حيث نفى إرادة الظلم، ومن كان بعيداً عن مجرد الإرادة، كان عن الظلم أبعد.

﴿وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾﴾.

﴿وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ﴾ خوّفهم بالعذاب الأخروي بعد تخويفهم بالعذاب الدنيوي، و ﴿يوم التناد﴾ يوم القيامة، حيث ينادي فيه المجرمون بالويل والثبور.

﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾﴾.

﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ﴾ أي منصرفين من الموقف إلى النار، أو فارين عنها ﴿مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ﴾ يعصمكم من عذابه ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ يهديه إلى طريق النجاة.

﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾﴾.

﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ﴾ هو يوسف بن يعقوب عليهما السلام ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي من قبل موسى ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ بالمعجزات الواضحة ﴿فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ﴾ من الدين ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ﴾ بالموت ﴿قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا﴾ ضماً إلى تكذيب رسالته، تكذيب رسالة من بعده، وإنما قالوا ذلك على سبيل التشهي والتمنِّي، من غير حجة ولا برهان، وجعلوه أساساً في تكذيب الأنبياء ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي مثل ذلك الإضلال ﴿يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ﴾ في عصيانه ﴿مُّرْتَابٌ﴾ في دينه، شاكٌّ فيما تشهد به الآيات.

﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾﴾.

﴿ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ﴾ أي بغير حجة صالحة للتمسك بها، بل بالتقليد الأعمى ﴿أَتَىٰهُمْ﴾ أي جاءهم من عند الله ﴿كَبُرَ مَقْتًا﴾ أي عظم بغضاً ﴿عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أي عند الله وعند المؤمنين، وفيه ضربٌ من التعجب والاستعظام، كأنه يقول: ما أعظمه؟ ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي مثل ذلك الطبع ﴿يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ فيصدر عنه أمثال ما ذكر من الإسراف والارتياب، والمجادلة بالباطل، قالوا: كمال السعادة في أمرين: التعظيم لأمر الله، والشفقة لخلق الله، والتكبر كالمضاد للتعظيم، والتجبر كالمضادِّ للشفقة.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾﴾.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا﴾ أي بناءً شامخاً ﴿لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ﴾ أي الطُّرق الموصلة إلى السماوات العُلى.

﴿أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾﴾.

﴿أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ بيان لها، أي طرق السموات وما يؤدي إليها ﴿فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ﴾ في ادعائه بوجود إله ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ مثل ذلك التزيين ﴿زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ فانهمك فيه وكان لا يرعوي بحال ﴿وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ﴾ أي سبيل الرشاد، والفاعل في الحقيقة هو الله تعالى، والمزيِّن هو الشيطان بوسوسته، كقوله تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنْ السَّبِيلِ﴾[1] وقرىء بالفتح على أن فرعون صد الناس عن الهدى بأمثال هذه التمويهات والشبهات، ويؤيده قوله تعالى: ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ﴾ أي في خسارٍ وهلاك، ونظيره ﴿وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾ أي خسران.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾﴾.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ﴾ من آل فرعون، نادىٰ قومه ثلاث مرات، ناصحاً ومذكراً، وهو إنما تعلَّم هذا من موسى عليه السلام ﴿يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ﴾ فيما دللتكم عليه ﴿أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ أي سبيلاً يصل سالكه إلى المقصود، وفيه تعريض بأن ما يسلكه فرعون وقومه سبيل الغي والضلال، لأنه إنما يدعو قومه إلى الظلم والطغيان.

---

(١) سورة النمل، آية: ٢٤.

﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْآخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾﴾.

﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ﴾ أي تمتع يسير، لسرعة زوالها ﴿وَإِنَّ ٱلْآخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ﴾ لخلودها ودوام ما فيها.

﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾﴾.

﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ۖ﴾ عدلاً منه سبحانه ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي بغير تقدير وموازنة بالعمل، بل أضعافاً مضاعفة، فضلاً من الله، وجعل العمل عمدة، والإيمان أساساً، للإيذان بأنه لا عبرة بالعمل بدونه، ولهذا جاءت الجملة اسمية ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾.

﴿۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾﴾.

﴿۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ﴾؟ كرر نداءهم إيقاظاً لهم عن سَنَة الغفلة، واعتناءً بالمنادى له.

﴿تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾﴾.

﴿تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ﴾ فيه معنى التعجب، كأنه يقول: أنا أعجب من حالكم هذه، أدعوكم إلى النجاة والسعادة، وتدعونني إلى النار والجحيم، بسبب الكفر بالله العظيم؟ ﴿وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ﴾ أي بشركته

له سبحانه في المعبودية ﴿عِلْمٌ﴾ أي بربوبيته، والمراد نفي المعلوم، والإشعار بأن الألوهية لا بد لها من برهان موجب للعلم بها ﴿وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ﴾ أي أدعوكم إلى عبادة الواحد الأحد، الجامع لجميع صفات الألوهية، من كمال القدرة، والإرادة، والتمكن من المجازاة على التعذيب والغفران.

﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٤٣﴾﴾.

﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ﴾ أي حقاً ثابتاً، أنه لا شك في بطلان ما أنتم عليه، من دعوة آلهتكم إلى عبادتها، لأنها جمادات، ليس لها ما يقتضي القدرة على شيء، لا تقدر على تفريج كربة ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ﴾ تعالى بالموت، عطف على ما تدعونني داخل في حكمه، وكذا قوله: ﴿وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ﴾ أي في الضلال والطغيان، كالإشراك بالله، وسفك الدماء ﴿هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ أي ملازموها.

﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٤٤﴾﴾.

﴿فَسَتَذْكُرُونَ﴾ أي سيذكر بعضكم بعضاً عند معاينة العذاب ﴿مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ﴾ قاله لمّا توعّدوه بالقتل ﴿إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ فيحرس من يلوذ به من المكاره.

﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿٤٥﴾﴾.

﴿فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا﴾ أي شدائد مكرهم، وما همّوا به من

إلحاق أنواع العذاب بمن خالفهم، قيل نجا مع موسى عليه السلام ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ﴾ أي نزل بفرعون وقومه، وعدم التصريح به للاستغناء بذكرهم عن ذكره، ضرورة أنه أولى منهم بذلك العقاب ﴿سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾ أي نزل بهم أسوأُ أنواع العذاب، ثم فسَّره بقوله:

﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾.

﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ المراد بعرضهم على النار إحراقهم بها، من قولهم: عُرض الأُسارى على السيف، إذا قُتلوا به ﴿غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ وذكرُ الوقتين للتأبيد، كأنه يقول: عذابهم مستمر ما دامت الدنيا، روى الشيخان عن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «إنَّ أحدكم إذا مات، عُرض عليه مقعدهُ بالغَدَاةِ والعَشِيِّ، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار، فمن أهل النار، يقال: هذا مقعدك، حتى يبعثك الله تعالى يوم القيامة»[1] فدَّل هذا على أن العذاب مستمر، ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾ يقال للملائكة: ﴿أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ أي يقال لهم: أدخلوا فرعون وقومه نار جهنم ﴿أَشَدَّ العَذَاب﴾ أي هي أشد من كل عذاب نالوه قبل ذلك، وهذه الآية دليلُ على عذابٌ القبر، لأن عرض النار عليهم كان بعد الموت، وقبل البعث.

﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾﴾.

﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ﴾ أي اذكر لقومك وقت تخاصمهم فيها

---

(١) أخرجه البخاري ٣/ ١٩٣ في الجنائز، ومسلم رقم ٢٨٦٦ باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه، والترمذي رقم ١٠٧٢ باب ما جاء في عذاب القبر.

﴿فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟﴾ منهم ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟﴾ وهم رؤساؤهم أكابر مجرميها ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ أي أتباعاً، كخَدَم في جمع خادم ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ﴾ أي دافعون ﴿عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ﴾؟ بالدفع أو بالحمل؟.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾﴾.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ﴾ أي نحن وأنتم فيها، فكيف نغني عنكم؟ ولو قدرنا على إزالة العذاب، لرفعناه عن أنفسنا ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ﴾ أي قضى قضاءً لا مردَّ له، ولا معقب لحكمه.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾﴾.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ﴾ من الضعفاء والمستكبرين جميعاً، حين اشتد عليهم العذاب ﴿لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ﴾ أي لحرَّاسها، ووضعُ جهنم موضع الضمير للتهويل، ولبيان أنهم في أبعد دركات الجحيم ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ﴾ أي ولو مقدار يوم واحد من هذا العذاب، واقتصارهم على هذا، دون رفعه رأساً، أو تخفيف قدر كثير منه، لأن ذلك عندهم شبيه بالمستحيل، ولا يدخل تحت أمانيهم.

﴿قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۚ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ ۗ وَمَا دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾﴾.

﴿قَالُوٓا۟﴾ أي الخزنة توبيخاً ﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾؟ أي أما كانت الرسل تأتيكم في الدنيا بالحجج الواضحة، الدالة على سوء حال ما كنتم عليه؟ أرادوا بذلك إلزامهم، وتوبيخهم على إضاعة أوقات

الدعاء ﴿قَالُوا بَلَىٰ﴾ أي أتونا بها فكذبناهم، كما نطق به قوله تعالى: ﴿قالوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا﴾[1] ﴿قَالُوا فَادْعُوا﴾ أي إذا كان الأمر كذلك فادعوا أنتم، فإن الدعاء للكاذبين، مما يستحيل منَّا ﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ أي دعاؤكم لا ينفع ولا يُسمع، لأنه دعاء الكافر الفاجر، وما دعاء الكافر إلاَّ في ضياع وبطلان، وهو من تتمة كلام خزنة جهنم.

﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴿٥١﴾﴾.

﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ بالحجة والظفر والانتقام لهم من الكفرة، ولا يقدح في ذلك ما قد يتفق للكفار من صورة الغلبة امتحاناً، إذ العبرةُ إنما هي بالعواقب، وهذا الكلام مسوق من جهته تعالى، لبيان أن ما أصاب الكفرة من لوازم ما تقتضيه الحكمة، وهي نصرة الرسل الكرام وأتباعهم في الحياة الدنيا ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ أي القيامة، عبَّر عنها بذلك، للإشعار بكيفية النصرة، وأنها تكون عند جمع الأولين والآخرين، بشهادة الأشهاد للرسل بالتبليغ، وعلى الكفرة بالتكذيب.

﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٥٢﴾﴾.

﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ﴾ أي يوم لا ينفع المجرمين اعتذارهم لأنه باطل ﴿وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ﴾ أي البعد عن الرحمة ﴿وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ أي جهنم.

---

(١) سورة الملك، آية: ٩.

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾ ﴾ .

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ ما يهتدي به من المعجزات، والصحف، والشرائع ﴿ وَأَوْرَثْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ﴾ التوراة التي أنزلها الله على موسى .

﴿ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٤﴾ ﴾ .

﴿ هُدًى وَذِكْرَىٰ ﴾ أي هداية وتذكرة، أو هادياً ومذكراً ﴿ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ لذوي العقول السليمة.

﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٥٥﴾ ﴾ .

﴿ فَٱصْبِرْ ﴾ يا محمد على أذى المشركين ﴿ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ﴾ الذي ينطق به قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ. إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ. وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾[1] أو وعده الخاص بك، أو جميع مواعده تعالى ﴿ حَقٌّ ﴾ لا يحتمل الإخلاف أصلاً، واعتبرْ بحال موسى وفرعون ﴿ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ ﴾ أي تداركْ لما فرط منك من ترك الأولى، فإنه تعالى كافيك في نصرة دينك، وإظهاره على الدين كله ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴾ أي دم على التسبيح، ملتبساً بحمده.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ۚ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ ﴾ .

---

(١) سورة الصافات، آية: ١٧١ ـ ١٧٣ .

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ﴾ في ذلك من جهته تعالى، وتقييد المجادلة بذلك، للتنبيه على أن التكلم في أمر الدين، لا بد من استناده إلى سلطان مبين، وهذا عام لكل مجادل مبطل، وإن نزل في مشركي مكة ﴿إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ﴾ أي ما في قلوبهم إلاَّ تكبر عن الحق، وتعظُّمٌ عن التفكر والتدبر، يمنعهم من اتِّباعك، حسداً وبغضاً ﴿مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ﴾ صفة لكبر، أي ما هم ببالغي مقتضى ذلك الكبر، ولا بواصلين إلى مرادهم من إطفاء نور الله ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ أي فالتجىء إليه تعالى، من كيد من يحسدك، وفيه رمز إلى أنه من همزات الشياطين ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ لأقوالكم وأفعالكم.

﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾.

﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ تحقيق للحق، وتبيين لأشهر ما يجادلون فيه، من أمر البعث، على منهاج قوله تعالى: ﴿أَوَ لَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾[1] ؟ وهم يعتقدون بأن الله تعالى خلق السماوات والأرض، ولا يؤمنون بالبعث، ولما وصف الله جدالهم، ذكر لهذا مثالاً فقال: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلأَرضِ أَكبَرُ مِن خَلقِ ٱلنَّاسِ﴾ والقادرُ على الأكبر، قادرٌ على الأصغر، لامحالة ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنَّ خلق الأصغر، أسهل من خلق الأكبر، لقصورهم في النظر والتأمل، لفرط غفلتهم، واتباعهم لأهوائهم.

---

(١) سورة يسّ، آية: ٨١.

﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓـُٔ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾﴾.

﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ أي الغافل والمتبصر، والعالم والجاهل، والمؤمن والكافر ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓـُٔ﴾ أي ولا يستوي البرُّ والفاجر، ولا المحسن والمسيء ﴿قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾ أي تذكراً قليلاً بمعنى: ما أقلَّ من يتذكَّر منكم؟!.

﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾﴾.

﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾ أي في مجيئها، لوضوح شواهدها، وإجماع الرسل على الوعد بوقوعها ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ أي الكفار الذين ينكرون البعث ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لقصور أنظارهم، وقصرها على ظواهر ما يحسُّون بها.

﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾.

﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ﴾ أي اعبدوني ﴿أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ أي أُثبكم لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ أي صاغرين ذليلين، وإن فسر الدعاء بالسؤال، كان الأمر الصارف عنه، منزَّلاً منزلة الاستكبار عن العبادة، أو المراد بالعبادة الدعاء فإنه أفضل أبوابها، عن النعمان بن بشير قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول على المنبر:

«الدعاءُ هو العبادة، وقرأ ﷺ ﴿وقال ربكم ادعوني أستجبْ لكم..﴾الآية»[1].

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾ ﴾.

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ ﴾ بأن خلقه بارداً مظلماً، ليؤدي إلى ضعف الحركات، وهدوء الحواس، لتستريحوا فيه ﴿ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ ﴾ أي مضيئاً لتبصروا فيه مصالحكم ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ أي فضلٍ عظيم، لا يدانيه ولا يوازيه فضل ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴾ لجهلهم بالمنعم، واعتقادهم أن هذه النعمة ليست من الله، ثم إن النعمة إذا دامت واستمرت نسي الإنسان كونها نعمة، فإذا ابتلي بفقدان شيء منها، عَرَف قدرها، مثل أن يتفق لبعض الناس ـ والعياذُ بالله ـ أن يحبسه بعضُ الظلمة، في بئر عميقة مظلمة، مدة مديدة، فحينئذ يعرف ذلك الإنسان، قدر نعمة الهواء الصافي، والضوء، ورأيت بعضهم يُعذَّب بمنعه عن الاستناد والنوم.

﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾.

﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ أي هو سبحانه المتفرد بالخلق ﴿ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ ﴾ أي لا معبود بحق إلا هو، وهذه أخبار مترادفة، أي هو الجامع بين الربوبية، والألوهية، والوحدانية، والخالقية لكل شيء ﴿ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾؟ أي فكيف ومن أيِّ وجه تصرفون عن عبادته إلى عبادة غيره؟.

---

(١) الحديث أخرجه أبو داود رقم ١٤٧٩ في الصلاة، والترمذي رقم ٣٢٤٤ في التفسير، وقال: حديث حسن صحيح.

﴿ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ .

﴿ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ أي مثل ذلك الإفك والصرف العجيب، يُصرف عن الإيمان كل من جحد بآياته تعالى، أيَّ آية كانت، ويُصرف عن الهدى والحق، إلى العمى والضلال!!.

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾ .

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً ﴾ أي جعل الأرض ممهدة صالحة لسكناكم، تبنون عليها الدور والقصور، وجعل السماء كالقبة المبنية مرفوعة فوقكم، فضلاً منه وكرماً ﴿ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ ﴾ أي صوَّركم أحسن تصوير، حيث خلقكم منتصبي القامة، ولم يخلقكم منكوسين كالبهائم، وجعل صوركم أحسن الصور ﴿ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ ۚ ﴾ أي اللذائذ ﴿ ذَٰلِكُمُ ﴾ أي ذلكم الفاعل لِمَا ذُكر ﴿ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ أي مالكهم ومربيهم، والكلُّ تحت ملكوته، مفتقر إليه في ذاته، وسائر أحواله، بحيث لو انقطع فيضه عنه ثانية، لانعدم بالكلية.

﴿ هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾ .

﴿ هُوَ ٱلْحَىُّ ﴾ المنفرد بالحياة الذاتية الحقيقية ﴿ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾ أي لا معبود بحق إلا الله، إذْ لا وجود يدانيه، في ذاته، وصفاته، وأفعاله ﴿ فَٱدْعُوهُ ﴾ فاعبدوه خاصة ﴿ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ﴾ أي مخلصين الطاعة والعبادة، من الشرك الجلي، والخفي ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ أي قائلين: الحمد لله رب العالمين، حمداً له على نعمة الخلق والإبداع.

﴿ ۞ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِيَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٦﴾ ﴾.

﴿ ۞ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ أي قل يا محمد: إن ربي العظيم الجليل نهاني أن أعبد هذه الآلهة المزعومة، التي تعبدونها من الأوثان والأصنام، وذلك حين طلب الكفار منه ﷺ عبادة الأوثان قيل هذا ﴿ لَمَّا جَآءَنِيَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّي ﴾ من الحجج والآيات الكونية، والتنزيلية ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ بأن أخلص له ديني.

﴿ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوٓاْ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾.

﴿ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ﴾ أي هو جل وعلا الذي أوجدكم أيها الناس من العدم، فخلق أصلكم آدم من تراب، ثم خلق ذريته من النطفة من الماء المهين، وجعل الإنسان يمرُّ في أدوار وأطوار، من النطفة، إلى العلقة، إلى المضغة، إلى اكتمال نمو الطفل، ثم يخرج من بطن أمه طفلاً صغيراً ضعيفاً، ﴿ ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخًا وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ﴾ أي من قبل الشيخوخة ﴿ وَلِتَبْلُغُوٓاْ أَجَلًا مُّسَمًّى ﴾ وهو وقت الموت ﴿ وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ أي لكي تعقلوا ما في ذلك من الحكم والعبر.

﴿ هُوَ ٱلَّذِي يُحْيِۦ وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾ ﴾.

﴿ هُوَ ٱلَّذِي يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ﴾ أي يُحيي الأموات، ويميت الأحياء، ويفعل الإحياء والإماتة ﴿ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ فلا يحتاج في تكوينه

إلى مُدَّة، وتجشم كلفة، وهذا تمثيل لتأثير قدرته تعالى في المقدورات عند تعلق إرادته بها.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴾؟ تعجب من أحوالهم، وتمهيد لما يعقبه من بيان تكذيبهم بكل القرآن، وبسائر الكتب، أي انظر إلى هؤلاء المكابرين، المجادلين في آيات الله تعالى الواضحة، الموجبة للإيمان، كيف يصرفون عن التصديق بها، مع تعاضد الدواعي إلى الإقبال عليها؟.

﴿ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾.

﴿ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ ﴾ أي بالقرآن والكتب السماوية، فإن تكذيبه تكذيب للكل، وصيغة الماضي للدلالة على التحقق، كما أن صيغة المضارع في الأولى، للدلالة على تجدد المجادلة ﴿ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ۖ ﴾ من الوحي والشرائع ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ عاقبة ما فعلوا من الجدال والتكذيب عند عقوبتهما.

﴿ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ ﴾.

﴿ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴾ أي يسحبون بها.

﴿ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾.

﴿ فِى ٱلْحَمِيمِ ﴾ أي يُجرُّون في الماء الحار ﴿ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴾ أي يحرقون، والمراد بيان أنهم يُعذبون بأنواع العذاب.

﴿ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ ﴾.

﴿ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴾ أي أين الأوثان التي عبدتموها من دون الله تعالى؟.

﴿ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا ﴾ أي غابوا عنَّا، بل تبين لنا أنا لم نكن نعبد شيئاً، جحدوا عبادتهم لحيرتهم واضطرابهم ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ أي مثل ذلك الضلال ﴿ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ حيث لا يهتدون إلى شيء ينفعهم في الآخرة.

﴿ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾.

﴿ ذَٰلِكُم ﴾ أي الإضلال ﴿ بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ أي بسبب أنكم كنتم تبصرون وتتكبرون ﴿ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ بالشرك والطغيان ﴿ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴾ أي تتوسعون في البطر والأشر، وتتكبرون عن عبادة الله.

﴿ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾.

﴿ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ ﴾ أي أبوابها السبعة، قال الله تعالى: ﴿ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴾[1] ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا ﴾ مقدَّراً خلودكم فيها ﴿ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ أي عن الحق، والتعبير بالمثوى لكون دخولهم بطريق الخلود الدائم، فهي المأوى والمسكن لهم.

---

(١) سورة الحِجْر، آية: ٤٤.

﴿ فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقٌّۖ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾.

﴿ فَٱصۡبِرۡ ﴾ أي فاصبر يا محمد على إيذائهم، وعلى ضروب ما ترى منهم من بلاء، فعمّا قريب سترى ما يحلُّ بهم ﴿ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ ﴾ بتعذيبهم ﴿ حَقٌّۖ ﴾ كائن لا محالة ﴿ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ ﴾ وهو القتلُ والأسر ﴿ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ ﴾ قبل ذلك ﴿ فَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ ﴾ يوم القيامة فنجازيهم بأعمالهم، ولن يُفلتوا من عقابنا.

﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا مِّن قَبۡلِكَ مِنۡهُم مَّن قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ وَمِنۡهُم مَّن لَّمۡ نَقۡصُصۡ عَلَيۡكَۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأۡتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ قُضِيَ بِٱلۡحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾.

﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا مِّن قَبۡلِكَ مِنۡهُم مَّن قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ وَمِنۡهُم مَّن لَّمۡ نَقۡصُصۡ عَلَيۡكَۚ ﴾ فإنَّ عدد الأنبياء كبير مائة وأربعة وعشرون ألفاً كما ورد في الحديث الشريف، والمذكور أفراد معدودة، أي منهم من أخبرناك عن قصصهم وأخبارهم مع أممهم، ومنهم من لم نخبرك عن قصصهم وأحوالهم ﴿ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ ﴾ أي ما صحَّ لرسول من الرسل ﴿ أَن يَأۡتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ﴾ أي أن يأتي قومه بشيء من المعجزات، إلاَّ بأمر الله تعالى وإذنه، فإن المعجزة على تشعب فنونها عطايا من الله تعالى، قسمها بينهم حسبما اقتضته مشيئته، المبنية على الحكم البالغة، وهذا ردٌّ على كفار قريش، حيث قالوا للنبي ﷺ: إن كنت رسولاً فاجعل لنا جبل الصفا ذهباً، وأجْرِ لنا الأنهار في فجاج مكة!! ﴿ فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ ﴾ بالعذاب في الدنيا والآخرة ﴿ قُضِيَ بِٱلۡحَقِّ ﴾ بإنجاء المحق وإثابته، وإهلاك المبطل وتعذيبه ﴿ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ﴾ أي المتمسكون بالباطل، فيدخل فيه المعاندون، المقترحون للمعجزات على سبيل التعنُّت.

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ .

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ ﴾ قيل هي للإبل خاصة، أي خلقها لأجلكم ومصلحتكم، وقيل: هي الأزواج الثمانية «الإبل، والبقر، والغنم، والماعز» وهو الأصح ﴿ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا ﴾ كالإبل ﴿ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ كالغنم والبقر.

﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ .

﴿ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ ﴾ أخر كألبانها، وأوبارها، وجلودها ﴿ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ ﴾ بحمل أثقالكم من بلدٍ إلى بلد ﴿ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴾ أي وعلى هذه الإبل في البر، وعلى السفن في البحر، تحملون أنتم وذرياتكم، وإنما قرن سبحانه بين الإبل والسفن، لما بينهما من المناسبة المتينة، حتى سميت الإبل «سفن البر».

﴿ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾ ﴾ .

﴿ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ﴾ دلائله الدالة على كمال قدرته، ووفور رحمته ﴿ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ أيْ أيَّ آية من تلك الآيات الباهرة ﴿ تُنكِرُونَ ﴾؟ فإن كلاًّ منها من الظهور، بحيث لا يكاد يجترىء على إنكارها من له عقل.

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ .

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟

﴿أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ أي كانوا أكثر عدداً من كفار مكة، وأقوى منهم قوة ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ أي أيَّ شيء أغنى عنهم مكسوبهم؟ لم تعصمهم قوةٌ، ولا كثرةٌ، ولا عمرانٌ، يعني لو ساروا لعرفوا، أن عاقبة المتكبرين المتمردين، ليست إلا الهلاك، مع أنهم كانوا أكثر عَدَداً وعُدَداً.

﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾﴾.

﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ بالمعجزات الواضحات ﴿فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ أي العلم بأمور الدنيا الخالي عن نور الهداية والوحي وهو ما لهم من العقائد الزائغة، وتسميتها علماً للتهكم بهم، والمراد بفرحهم ضحكهم واستهزاؤهم بهم، ويؤيده قوله تعالى ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أي نزل وأحاط بهم جزاء كفرهم واستهزائهم بالرسل والآيات.

﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾﴾.

﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ﴾ أي فلما رأوا العذاب آمنوا، وخضعوا، واستسلموا، وقالوا آمنا بأن الله واحد، وكفرنا بما كنا به مشركين، يعنون بذلك الأصنام والأوثان، التي عبدوها من دون الله تعالى.

﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾.

﴿ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ﴾ لامتناع قبوله حينئذ، لأن النافع هو الإيمان الاختياري، لا الاضطراري ﴿ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ﴾ أي سنَّ الله تعالى ذلك، سنة ماضية في العباد ﴿ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ أي وقت رؤيتهم البأس والعذاب. يا من تقاصرت عن الإحاطة بجليل أسرار كبريائه أفهام المتفكرين، لا تجعلنا بفضلك ورحمتك في زمرة الخاسرين، ولا تجعلنا يوم القيامة من المخذولين والمحرومين، فإنك أكرم الأكرمين، وأرحم الراحمين، وصلوات الله على سيدنا محمد، وآله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

«تم بعونه تعالى تفسير سورة غافر»

* * *